حكم
تشريعية

الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

الإعجاز البياني في القرآن الكريم

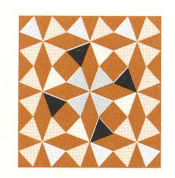
د. محمد محمد داود

أستاذ م. علم اللغة بجامعة قناة السويس
عميد معهد معلمي القرآن الكريم بالمركز الإسلامي بالعمرانية
خبير بمجمع اللغة العربية

اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم



الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسُنّة
INTL. COMMISSION ON SCIENTIFIC SIGNS IN QUR'AN & SUNNAH



الإعجاز البياني

في القرآن الكريم

دار جياد للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - ص.ب ١٣٢٢٥٢ جدة ٢١٣٨٢

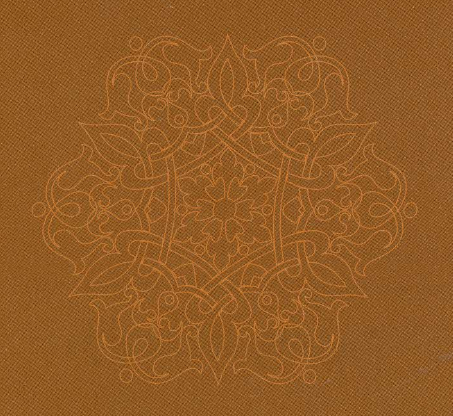
هاتف : ٠٠٩٦٦٢٦٧١٦٩٩٨ / فاكس : ٠٠٩٦٦٢٦٧٥٢٦٥٠

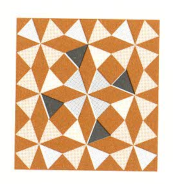
الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

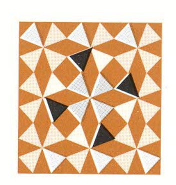


﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ
يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ
عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣﴾ [فصلت]





المحتويات



تقديم

فضيلة الدكتور/ عبد الله بن عبد العزيز المصلح

الأمين العام للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنّة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد،،

إن المعجزة العلمية في القرآن الكريم والسنة المطهرة تعد أسلوباً جديداً، وباباً فريداً للولوج إلى القلوب من خلال القناعات العقلية بالمسلمات العلمية خاصة عند غير المسلمين الذين يؤمنون بلغة العصر وهي لغة العلم.

والإعجاز العلمي في القرآن والسنة هو عصمة لأمتنا ووسيلة لإطلاق قدراتها العقلية الإبداعية، وباب مهم في الدعوة إلى الله في هذا الزمان، وهو بهذا يعتبر من وسائل النهوض بالأمة وتحقيق رسالتها العالمية.

ولذلك حرصت الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة على الاهتمام بالبحوث العلمية وتوثيقها توثيقاً منهجياً صحيحاً بمشاركة عدد كبير من الباحثين والعلماء المتخصصين داخل الهيئة وخارجها من شتى الآفاق.

إن رسالة هذه الهيئة أن تبين هذه الحقيقة الناصعة وأن تكون قنطرة للتواصل العلمي نحقق من خلالها خدمة الإنسانية في البحث عما ينفع الناس ويمكث في الأرض ولنثبت للعالم أن ديننا دين علم ومعرفة يبحث عن الحق ويدعو إلى الإبداع والتقدم والأخذ بأسباب الرقي المادي وصناعة الحضارة من أجل حياة إنسانية كريمة يسودها العدل ويصير العلم فيها خادماً للناس معيناً لهم لا معول هدم وسبب دمار وبذلك يصبح الناس جميعاً في أمن وأمان؛

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء]

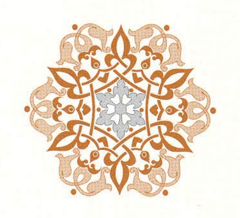
وإن هذا البحث الذي بين أيدينا **(الإعجاز البياني في القرآن الكريم)**

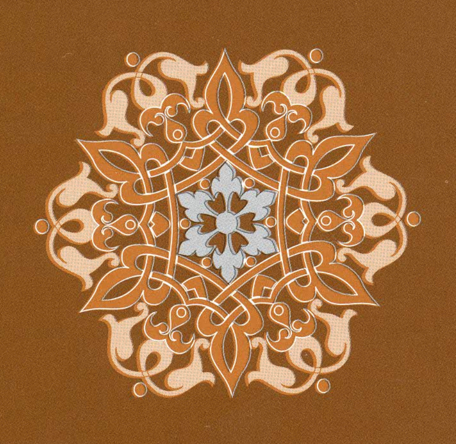
يبين الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم الذي وقف فيه **الدكتور/ محمد محمد داود**، على الظواهر الصوتية التي تفرَّد بها القرآن الكريم والتي تلفت الانتباه، ويظهر فيها وجه من وجوه الإعجاز.

ويقع هذا البحث ضمن بحوث محور «الحكم التشريعية» ، وهو أحد محاور الإعجاز العلمي في القرآن والسنة التي تم عرضها في المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة في جمهورية تركيا في عام ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م .

و يعد عملاً مباركاً، وجهداً مشكوراً ضمن مجال الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، نسأل الله أن ينفع به، وأن يبارك في جهود العاملين المخلصين.

والله ولي التوفيق ،،،





من الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم

أ.د/ محمد محمد داود

أستاذ اللغويات بجامعة قناة السويس

مراجعة علمية

أ. د/ جمال الدين إبراهيم

أستاذ علم التكسوكولوجي

جامعة كاليفورنيا ـ أمريكا

مُقَدِّمَة

لم يَحْظَ كتابٌ في الدنيا بالدراسات فيه وحوله مثلما حظي القرآن الكريم، بَيْدَ أنه على الرغم من استبحار الدراسات القرآنية ووفرتها، إلا أن القرآن الكريم لا يزال يستنهض هِمَمَ الباحثين لمزيد من البحث في آفاقه الممتدة التي لا تقف عند نهاية: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ (الكهف: ١٠٩).

وكل باحث - حسبما يتيسر له من أدوات - يكشف الله له جانبًا من أسرار كتابه العزيز الذي لا تنفد أسراره: ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٠).

ولمَّا كان القرآن من الله الحكيم - وفعلُ الحكيمِ كلُّه حكمة - وكل شيء عنده بقدر ومقدار؛ لذا وصف الله ﷻ القرآن بالإحكام، قال الله ﷻ:

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود: ١).

ومن ثَمَّ، فقد نشطت الجهود لتتبع الظواهر اللغوية في القرآن الكريم، للكشف عن أسرار هذا الإحكام المعجز. ومن بين هذه الجهود هذا البحث " من الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم " الذي وقفت فيه على الظواهر الصوتية التي تفرَّد بها القرآن الكريم والتي تلفت الانتباه، ويظهر فيها وجه من وجوه الإعجاز.

وتقع هذه الدراسة في قسمين:

القسم الأول: الإعجاز الصوتي لغويًّا، وقد صنفته في سبع مسائل، هي:

المسألة الأولى: أثر صوتيات القرآن في حفظ اللغة العربية واستقرارها عبر الزمان والمكان.

المسألة الثانية: الإيقاع والنغم القرآني الخالد.

المسألة الثالثة: الفاصلة بين التناسق الصوتي ورعاية المعنى.

المسألة الرابعة: إيحاء الصوت بالمعنى.

المسألة الخامسة: الإيحاء الصوتي للتراكيب.

المسألة السادسة:التناسب والتناسق بين نوع الحركة والمعنى.

المسألة السابعة: عولمة الصوت وعالمية النغم القرآني الخالد، تأملات في الواقع المعاصر.

القسم الثاني: التأثير الطبيعي (الفيزيائي) للصوت القرآنى على الإنسان، النبات، الجماد.

والله أسأل أن يوفقني فيه وأن ينفع به، فهو وليُّ ذلك والقادر عليه.

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨).

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧)، والحمد لله رب العالمين.

محمد محمد داود

١/٦/٢٠١٠م

Email:dr.mohameddawood@yahoo.com

القســم الأول

الإعجــاز الصـوتـي لغويـاً

المسألة الأولى

أثر صوتيات القرآن في حفظ اللغة العربية واستقرارها عبر الزمان والمكان.

التلقي الشفهيُّ هو الأساس في تعلُّم القرآن الكريم، منذ نزل جبريل ﷺ بالقرآن على سيدنا محمد ﷺ، وحتى وقتنا الحاضر، وإلى أن تقوم الساعة.

ولهذه الخاصية - المشافهة - آثار تصل إلى حدِّ الإعجاز، لكنَّ إلْفَ العادة هو الذي يمنعنا أو يحجب عنا ملاحظة نواحي الإعجاز. ولكن إذا ما قُورِنت العربية بغيرها من اللغات وما حدث لها، يظهر أثر القرآن في الاستقرار الصوتي للغة العربية وحفظها من الاندثار.

١. حفظ اللغة العربية حيَّة على ألسنة المسلمين في بقاع العالم في مقابل اندثار غيرها:

أ. اندثار اللغات القديمة كلها، ما عدا العربية:

إن المتأمِّل في التاريخ يرى - بوضوح - لغات كثيرة

قد اندثرت بموت أهلها، أو ضعفت بضعفهم؛ فأين اللغة الفينيقية - لغة أهل لبنان قديمًا -؟! وأين اللغة الهيروغليفية - لغة أهل مصر - ؟! والآشورية - لغة أهل بابل - ؟!... إلخ.

إن ارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم جعلها محفوظة بحفظه، وباقية ببقائه، وسبحان الله القائل:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩).

وبتأمُّل النظم القرآني في هذه الآية الكريمة نرى الملامح التالية:

- **عدول الخطاب القرآني عن لفظ** (القرآن)، **واستعمال لفظ** (الذِّكْر)، **والمراد به هنا: القرآن؛ لإفادة معنى الحضور اللساني والذهني، في تناسب وتناغم مع معنى البقاء المعبَّر عنه بالحفظ.**

- **استعمال أكثر من أداة من أدوات التوكيد:** (**اسمية الجملة، إن، نحن، تضعيف الفعل "نزَّلنا"، تكرار إن، اللام، تقديم الجار والمجرور "له" على المتعلّق "لحافظون"**).

استعمال صيغة اسم الفاعل في (لحافظون) بدلالتها على الحاضر والمستقبل.

وكل هذه الأدوات تتآزر معًا لإفادة معنى البقاء والدوام والحضور وقوة التأثير لهذا الكتاب العظيم، والواقع يشهد بهذا، فالقرآن الكريم هو النص الوحيد الذي لم يتغير ولم يتبدَّل منه حرفٌ على تطاول العصور، وعلى امتداد رقعة البلاد الإسلامية في كافة أرجاء المعمورة.

- ومن وسائل حفظ القرآن العظيم: حفظ لغته وبقاؤها حَيَّةً على ألسنة المسلمين أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان، من مهد الإسلام في جزيرة العرب إلى أقصى أطراف الأرض.

كيف استطاعت هذه اللغة العبقرية أن تصمد أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان، بينما اندثرت اللغات القديمة جميعًا، بل اندثرت لغات كانت حيةً على الألسنة منذ أقل من أربعة قرون؟

من أمثلة تلك اللغات: اللاتينية التي انقسمت إلى لهجات تحوَّلت فيما بعد إلى لغات مختلفة في ألفاظها وتراكيبها وبنيتها الكُلِّية. لقد كانت اللاتينية هي لغة الثقافة والعلم حتى وقت قريب، وكانت المؤلفات العلمية الكبرى تُكتب بها إلى عهد نيوتن (عاش في القرن الثامن عشر)، ومؤلَّفُه الذي قلب موازين علم الفيزياء عنوانه: "***Princibia Mathmatica***" باللاتينية، أي: مبادئ الرياضيات.

ومع ذلك، كانت اللاتينية حينئذٍ قد اندثرت تمامًا، وصارت لغة أبراج عاجيَّة، يكتب بها الفلاسفة والعلماء، ولكنها غائبة عن الحياة؛ لأنَّ الألسنة لا تنطق بها.

ومثلها اللغات الدينية التي اندثرت - بموتها على الألسنة - وانحصر وجودها بين جدران المعابد والأماكن المقدسة، كالسريانية (الآرامية)، والعبرية القديمة، ولغات السيخ والهندوس والشنتو وغيرها من لغات المعابد التي لا يعرفها سوى أفراد قليلين من كهنة المعابد.

علـى حـين ظلـت العربيـة صـامدة متجـددةً عبـر العصـور، واتسـع نطـاق المتحـدثين بهـا، الـذين هـم عـربٌ باللسـان، وصـدق النبـي ﷺ حـين قـال: "ليسـت العربيـة لأحـدكم بـأبٍ ولا أُمٍّ، ولكنهـا اللسـان، فمـن تكلَّـم العربيـة فهو عربي" [1].

وهذا أمرٌ مُشَاهَدٌ محسوس، فإنك لتجد الهندي أو الباكستاني أو الإيراني أو الأمريكي المسلم لا يعرف شيئًا عن قواعد العربية، فإذا ما تلا آيات الذكر الحكيم انطلق لسانُه، وتَخلَّص من عجمته ولُكْنته، وصارت أصواته واضحة كل الوضوح مطبوعة بالطابع العربي الخالص في صفات الأصوات ومخارجها، وهذا مما تفرَّد به القرآن الكريم.

أفليس هذا وجهًا من وجوه الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم؟!

وسبحان من هذا كلامه.

ب. الألفاظ القرآنية الخاصة:

مَن يدقِّق النظر في العربية المعاصرة يجد الكثير من

الألفاظ التي هُجِرت وظلَّ بقاؤها حيةً على الألسنة مقصورًا على الاستخدام الديني المرتبط بالقرآن.

وفي دراسة قمت بها عن الألفاظ الدالة على الكلام والاستخدام الديني في العربية المعاصرة[٢]، كان من الظواهر اللافتة للانتباه وجود مجموعة من الألفاظ ذات الدلالة الكلامية كادت تغيب عن الاستعمال المعاصر إلا في المجال الديني الإسلامي، عند شرح آيات القرآن التي وردت بها هذه الألفاظ، واستعمالُ هذه الألفاظ خارجِ مجال القرآن نادر ندرةً تصل إلى درجة العدم في الأعمِّ الأغلب، وضِيقُ مجال الاستعمال واقتصارُه على المجال الديني الإسلامي هو الملاحظة الأولى.

أما الملاحظة الثانية فهي ثمرة للملاحظة الأولى، فقد ترتب على الاستعمال اللصيق بالقرآن لهذه الألفاظ استقرار دلالاتها حتى أصبحت تبدو مشابهةً في استقرار دلالاتها للألفاظ الإسلامية الاصطلاحية: (الصلاة، الزكاة، الحج،....

إلخ).

وفيما يلي أمثلة مختارة من هذه الألفاظ مرتبة ترتيبًا هجائيًّا، مع ذكر معناها الذي استعملت به في القرآن الكريم:

م	المـادة	الصيغة الواردة	المعنى	الشواهد القرآنية
١	ث ج ج	ثجاجًا	شديد الانصباب	﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾ (النبأ)
٢	ث خ ن	أثخنتموهم يثخن	المبالغة في القتل	﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ (محمد: ٤) ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الأنفال: ٦٧)

م	المــادة	الصيغة الواردة	المعنى	الشواهد القرآنية
٣	ج أ ر	تجأرون يجأرون تجأروا	رفع الصوت بالدعاء والتضرع	﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ (النحل: ٥٣) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (المؤمنون) ﴿ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (المؤمنون)
٤	ج ب ت	الجبت	كل ما عُبِد من دون	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ

م	المـادة	الصيغة الواردة	المعنى	الشواهد القرآنية
			الله، واستعمل في الصنم والكاهن والساحر	بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ (النساء: ٥١)
٥	خ ت ر	خَتَّار	غَدَّار	﴿ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ٣٢ ﴾ (لقمان)
٦	خ ر ص	تخرصون الخرّاصون	إلقاء القول عن ظن وتخمين	﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨ ﴾ (الأنعام) ﴿ قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ١٠ ﴾

م	المـادة	الصيغة الواردة	المعنى	الشواهد القرآنية
				(الذاريات)
٧	خ ض د	مخضود	مقطوع شوكه	﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩ ﴾ (الواقعة)
٨	خ م ص	مخمصة	مجاعة؛ لأن البطن يضمر من شدة الجوع	﴿ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣ ﴾ (المائدة)، واللفظ في (التوبة: ١٢٠)

م	المــادة	الصيغة الواردة	المعنى	الشواهد القرآنية
٩	خ م ط	خَمْط	كل شجرة لها شوك وثمرتها مرة بشعة الطعم	﴿ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (سبأ)
١٠	خ ن س	الخناس	الشيطان الذي يخنس ويتوارى عند ذكر الله ﷻ. الكواكب	﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ﴾ (الناس)

م	المـادة	الصيغة الواردة	المعنى	الشواهد القرآنية
		الخُنَّس	السيارة؛ لأنها تختفي وتغيب	﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦ ﴾ (التكوير)
١١	ر ف ث	رفث	الفحش في القول	﴿ ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ ﴾

م	المـادة	الصيغة الواردة	المعنى	الشواهد القرآنية
				(البقرة: ١٩٧)
١٢	ش ن أ	شنآن	بُغْض	﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ (المائدة: ٢) ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ (الكوثر)
١٣	ض ب ح	ضَبْحًا	صوت أنفاس الخيل في	﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾ (العاديات)

م	المــادة	الصيغة الواردة	المعنى	الشواهد القرآنية
			جوفها حين تعدو	
١٤	ض غ ث	ضغثًا أضغاث	ما جُمع وقُبِضَ عليه بالكف أخلاط ملتبسة	﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ (ص: ٤٤) ﴿ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (يوسف)
١٥	غ ط ش	أغطش	أظلم	﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ ﴾ (النازعات)
١٦	هـ ي ت	هَيْتَ لك	هَلُمَّ وأَقْبِلْ	﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ ﴾

الشواهد القرآنية	المعنى	الصيغة الواردة	المـادة	م
(يوسف: ٢٣)				

هذا قليلٌ من كثير مما حفظه القرآن للعربية، وفي هذا أبلغ الدلالة وأقواها على أنّ كلمات القرآن الكريم هي التي كُتِبَ لها الحياة والخلود على مَرِّ الزمن، في حين أن الثروة اللفظية للعربية التي لم تُستعمَل في القرآن الكريم قد أُودِعت في قرافة (مقبرة) المعجمات في الأعمّ الأغلب.

ولا عجب من هذه الملاحظة التي تأكدت من خلال بحث قيِّم لعالميْن فَذَّيْن أحدهما لغوي وهو أستاذنا الدكتور عبد الصبور شاهين، والآخر متخصص في علم الإحصاء وهو الدكتور علي حلمي موسى تحت عنوان «دراسة إحصائية

لجذور معجم تاج العروس باستخدام الكمبيوتر»[٣]، وكان من نتائج هذه الدراسة:

• أن القرآن اصطفى خمسة عشر في المائة من جذور العربية هي أفضل وأيسر ما فيها، وأن جذور القرآن هي المادة المستعملة في اللغة العربية من أول الإسلام حتى الآن، وأما الخمسة والثمانون في المائة من لغة الجاهلية فقد أصبحت في المعاجم لكنها لا تجري على ألسنة الناس في حياتهم.

• أن جذور القرآن الكريم هي التي يجري بها فكر هذه الأمة منذ نطقت بعد رسول الله محمد ﷺ وبعد نزول القرآن إلى أيامنا هذه، وبحصر مفردات أي جريدة أو بحث أو مقال أو أي مادة مكتوبة، فإنها لا تخرج عن مادة القرآن إلا بمقدار اثنين في المائة فقط، وهذا يعني أن المادة الشائعة المهيمنة في الكتابات والأحاديث العربية هي مادة القرآن.

وتلتقي هذه الملاحظة مع ملاحظة ابن فارس في كتابه «الصاحبي» التي تقول: «إن القرآن فرض على الناس بيانًا خاصًّا، فهم يقولون في الشيء إذا وصفوه بالطول يقولون: طويل، ولا يقولون: أَشَقُّ ولا أَمَقُّ، وهما لا يردان في استعمال الناس» (٤).

إذن فقد هيمن القرآن على هذه اللغة وكان سببًا في استقرار مادتها؛ لأن مادة القرآن نحفظها جيلًا بعد جيل، ونُرَدِّدها بطريقة واحدة، وهذا هو السر في استمرار العربية ما يقرب من خمسة عشر قرنًا حتى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها إن شاء الله ﷻ.

فأي كتاب أو أثر أدبي أو غير ذلك كان له مثل هذا التأثير البالغ والهيمنة الدائمة على فكر أمة نشرت حضارتها في ربوعِ الأرض من أدناها إلى أقصاها وعلى لسانها؟!

إن الكتب المقدسة الأخرى ـ على الرغم من أثرها الكبير في نفوس أتباعها ـ لم يكن لها شيءٌ من هذا

التـــأثير البـــالغ؛ لأنهـــا تقوقعـــت فـــي المعابـــد، وانحصـــر استعمالها فـي أداء الشـعائر الدينيـة وحسـب، أمَّـا العربيـة - التـــي صـــاغها القـــرآن صـــياغة فريـــدة - فقـــد تحـــررتْ وانطلقـت بهـا الألسـنة وصـار قُصـارى جهـد الكُتَّـاب الـذين يكتبـون بهـا أن يتلمَّسـوا قبسًـا مـن فصـاحة القـرآن وبعضًـا من بلاغته وحسن تأليفه وتناغُم كلماته وأصواته.

٢. استقرار اللغة العربية:

على الرغم من أن التطور سُنَّة جارية في كل اللغات وأكثرُ مظاهره يكون في الدلالات، إلا أن العربية ظلت محتفظة بكل مستوياتها اللُّغويَّة (صوتية، صرفية، نحوية، دلالية)، وما تطور منها كان في إطار المعاني الأصلية وبسببٍ منها.

ويزداد إدراك أهمية الاستقرار اللغوي الذي تتميز به العربية إذا ما تأملنا التغيُّر السريع الذي يلاحق اللغة الإنجليزية (لغة الحضارة المعاصرة)، فنصوص الإنجليزية القديمة التي مر

عليها قرابة ثلاثة قرون أصبحت عصيَّة على الفهم بالنسبة للإنجليزي المعاصر.



توضع الصورة هنا

يضاف إلى ذلك ما نشرته مجلة «نيوزويك» باللغة العربية تحت عنوان «تراجع الإنجليزية الفصحى الراقية على مستوى العالم والإحساس بالخطر من سرعة تغيرها»، ويتساءلون في فَرْضِيَّة علمية لها ما يبررها: هل نحن (علماء الإنجليزية) أمام لغة جديدة؟ [٥]

ولعلَّ هذا التغيُّر السريع هو الذي دفع علماء هذه اللغة إلى إعادة صياغة النصوص الأدبية المهمَّة عندهم (مثل نصوص شكسبير) بإنجليزية حديثة *Modern English* يفهمها المعاصرون، بدلًا من الإنجليزية القديمة *Old English*.

في حين أن العربي المعاصر يقرأ آيات القرآن الكريم فلا يحس معها بغرابة، ويكفي النظر إلى هذه الآيات:

قول الله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ (العصر).

لنتأمَّل هذه السلاسة السائدة في السورة، وذلك الوضوح الدلالي مع عمق المعاني، وذلك التناسق الصوتي المتمثِّل في ختم الآيات بفاصلة الراء المقفلة بالسكون، وتكرار حرف الصاد بما فيه من تفخيم يتناسب وفخامة المقول، ويزيد من عُلُوِّ طبقته الصوتية مجاورة الراء المفخَّمة.. هذا إلى التدرُّج في طول الجُمَل بحيث توحي بالانتقال بالخطاب من الشدة والقوَّة والفخامة البالغة في الآية الأولى ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ﴾ إلى درجة أخف في الآية الثانية، ثم تُختَمُ السورة بأطول آياتها، وكأنَّ في ذلك إشارة إلى اللين والرفق بالمؤمنين الذين عملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر... إنك لتشعر مع هذا الامتداد والهدوء بزمان ممتد طويل يملؤه المؤمنون بعمل الصالحات واستمرار التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

إن الجملة القرآنية تتألف من كلمات وحروف ذات أصوات يستريح لتآلُفِها السمع والصوت والنطق، ويتكون من اجتماعها على الشكل الذي رُتِّبَت عليه،

إلا بالصورة التي جاءت عليها الآيات؛ وأي وجه من التغيير أو التبديل أو النقص أو الزيادة يضيع معه هذا الجمال والإبداع القرآني.

- **تأمل قوله** ﷻ: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ (القمر)، **وتأمل تناسق الكلمات في كل جملة منها، ثم دقِّق نظرك وتأمل تآلف الحروف الرخوة مع الشديدة ومع المهموسة والمجهورة وغيرها، ثم أمعن في تآلف الحركات والسكنات والمدود وتعاطفها مع بعضها، فإنك إذا تأملت في ذلك علمت أن هذه الجمل القرآنية إنما صُبَّتْ من الكلمات والحروف والحركات في مقدار، وأن ذلك إنما قُدِّر تقديرًا بعلم اللطيف الخبير، وهيهات للمقاييس البشرية أن تقوى على ضبط الكلام بهذه القوالب الدقيقة** (٦).

ولذلك فإنه على الرغم من مرور أكثر من أربعة عشر قرنًا، لا يكاد الإنسان يجد صعوبة في التواصل مع كلمات القرآن، وذلك في كل المستويات اللُّغوية: (الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية) [٧]، وهذه مزية عظيمة: أن تكون الأُمَّة موصولةً بتراثها الزاخر تفيد منه وتنتفع به.

وتأمُّلُ مزية استقرار اللغة العربية التي تفردت بها عن سائر اللغات التي تغيرت وتبدلت تغيُّرًا وَتَبدُّلًا جعل من اللغة الواحدة لغاتٍ كثيرةً متباينة - يجعلنا نتساءل: ما السبب وراء هذه المزية؟

هل يمكن إرجاع هذه المزية إلى أن اللغة العربية كانت لغة عالمية فيها كل ما تفتقر إليه الأمم في كل الأزمنة والأمكنة من ألفاظ ومعانٍ وأخيِلة، بحيث يجد الناس فيها ما يفتقرون إليه؛ لذلك فهم يحرصون عليها؟!

وهذا بعيد؛ فما كانت اللغة العربية ولا غيرها كذلك.

أم أن مزية استقرار اللغة العربية ترجع إلى أهلها ومكانتهم الاجتماعية والسياسية والعلمية؟! والواقع يُكَذِّب ذلك؛ فقد كان أهل العربية في وضع متأخر الشأن بجوار حضارتين عظيمتين هما حضارتا الفرس والروم، وفي حياتنا المعاصرة تتلاحق الهزائم سياسيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا على العرب.

وهكذا ينتهي بنا التأمُّل إلى أننا لا نجد سببًا مقنعًا لهذه المزية سوى أنها أثر من آثار القرآن الكريم، وسبحان من هذا كلامه.

٣. تـهذيب اللغة العربية (تنقية صوتية):

لقد نَحَّى القرآن الكريم عن اللغة التَّقعُّر في الكلام، والألفاظ الحُوشيَّة الثقيلة على السمع:

إن من يتأمل النثر أو الشعر الجاهلي يرى كثيرًا من الكلمات الحُوشِيَّة، من ذلك: «جحيش»، و«مستشزرات»، و«جحلنجح»، و«البخصات»، و«المطاط» وغير ذلك كثير.

من ذلك أيضًا ما رواه القالي في أماليه لأبي محلَّم الشيباني في أواخر القرن الثاني من كتاب له إلى بعض الحذَّائين في نعل.. قال هذا المتقعِّر: «دِنْها، فإذا هَمَّتْ تأتدن، فلا تُخَلِّها تُمَرْخِد، وقَبْلَ أن تَقْفَعِلَّ، فإذا ائْتَدَنَتْ فامْسَحْها بخِرْقَةٍ غير وكيَّة ولا جَشِيَّة، ثم امْعَسْها مَعْسًا رَقيقًا، ثم سنَّ شفْرَتَكَ، وأَمْهِهَا، فإذا رأيت عليها مثل الهَبْوة فسِنَّ رأس الإزميل»... إلخ.

وانظر قول القائل:

فاحذر ولا نَكْتَرْ كَرِيًّا أعْوَجَا

عِلْجًا إذا ساق بنا عَفَنْجَجَا!

وتأمَّلْ تكرار صوت الكاف والعين والجيم على مسافات متقاربة؛ مما يثْقُل على السمع واللسان، حتى يضيق به الناطق ويَمَجّه السامع وتنبو عنه القلوب.

وتكفي نظرة إلى ديوان أي شاعر أو راجز من العصر الجاهلي، لنرى إلى أي مدًى كان أثر القرآن الكريم بالغًا في تصفية أصوات اللغة وتنقيتها؛ وإليك مثالًا مما أورده صاحب "نظام الغريب في اللغة" لكلمة معروفة للعرب قاطبة هي "اللبن"، ومن مرادفاتها:

لبن أُمْهُجانٌ، وأُمْهَج بالفتح وأُمْهُوج أيضًا: اللبن الخالص. والماضر: اللبن الحامض ومنه سُمِّيَت المضيرة، ومثله الخاثر. والضَّيَاح: اللبن الممزوج بالماء. والرِّسْل: اللبن الحليب نفسه. والمذيق: اللبن الممزوج بالماء، والصريح الخالص منه.

والعُجَالِط والعُجَلِط: الرائب الغليظ. والرُّوبة بغير همز: اللبن الحامض الذي قد رُوِّبَ به الحليب. والعَكِيُّ بتشديد الياء: اللبن الحامض. والهُجْمة والهَجِيمة: اللبن قبل أن يحمض. والحاذر: اللبن الحامض، فإذا تقطَّعَ وصار اللبن ناحية والماء ناحية فهو مُمْذَقِرٌ، فإن تكبَّدَ بعضه على بعض وحمض فلم يتقطع فهو إذْك. والعُثَلِط والهُدَبِد: ما خَثَر منه وتلبَّد. والصَّقْر: أحمض ما يكون من اللبن، فإذا صُبَّ عليه حليب فهو الرَّائثة والْمُرِضَّة. والعكيس: اللبن الحليب يُصَبُّ على مَرَق. والنَّخِيسة: لبن الضأن يُصَبُّ على لبن المعز. والصَّحيرة: الحليب المسخن حتى يحترق.

والسَّمْهَج والسَّمْلَج: اللبن إذا كان حلوًا دسمًا. والمِلْعاز والمِلْهاز: اللبن يختلط بعضه ببعض عند المخض. والصَّرْب والصَّرَب: أحمض ما يكون من اللبن. والسَجَاج: أرَقُّ ما يكون من اللبن، والْمَهْو والْمَسْجُور مثله. والنَّسْء: الحليب إذا مزج بالماء، والنَّسِيُّ مثله (٨).

بينما اكتفى القرآن الكريم بكلمة واحدة هي (اللبن)، ولا عجب أن غابت كل تلك الكلمات الغريبة عن واقع الاستعمال اللغوي، وبقيت الكلمة القرآنية.

لقد كان القرآن بمثابة غربال لأصوات العربية، ومصفاةً لها أخرجت منها ما ينبو عنه السمع وما يثقل على اللسان، والناظر في هذا الكتاب الكريم يجد بين دفتيه أمثلة ناصعة للنقاء الصوتي والسلاسة وتجسيد المعنى عن طريق الصوت بصورة متميزة، بل ومتفردة لا نجد لها مثيلًا في أرقى مستويات الفصاحة اللغوية لهذه اللغة.

- كذلك نَحَّى القرآن الكريم كثيرًا من الألفاظ التي تعبر عن معانٍ لا يُقِرُّها الإسلام، من ذلك:
  - «المِرْباع»: وهو ربع الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية.
  - «النشيطة»: وهي ما أصاب الرئيس قبل أن يصير إلى القوم، أو ما يغنمه الغزاة في الطريق قبل بلوغ الموضع

المقصود.

o «المَكْس»: وهي دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق الجاهلية.

وفي هذا سُمُوٌّ لغوي يتوازى مع السُمُوِّ الخُلُقِي الذي أتَى به القرآن الكريم.

وسبحان من هذا كلامه!

وما يعقلها إلا العالمون.

وما يتذكر إلا أولو الألباب.

****

المسألة الثانية

الإيقاع والنغم القرآني الخالد

دُهِشَ العرب حينما سمعوا القرآن، وتحيَّروا في أمر هذا الكلام الذي تستلذُّه الآذان وتستخفُّه الألسنة وتقشعرُّ منه الجلود وتطمئنُّ به القلوب، ومَبْعَث حيرتهم ودهشتهم يعود - في جانب منه - إلى هذه الخصائص الصوتية الفريدة للقرآن، وقد جسَّد الوليد بن المغيرة هذه الحيرة حين قال يصف القرآن في مقولته المشهورة: "والله لقد وضعته على أقراء الشعر فما هو بالشعر، وما هو بالسجع ولا الكهانة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه لَيَعْلُو ولا يُعْلَى عليه".

في هذه الكلمة يتجسَّد ما تملَّك هذا الرجل وغيره من العرب لمَّا سمعوا القرآن الكريم، فقد اهتزت قلوبهم وهيمن الصوت القرآنيُّ على مشاعرهم، وتحيروا في شأن هذا النغم الفيَّاض .من أين يأتي؟! إنه ليس بشعر؛ لأنه لا يتفق مع أوزان الشعر وطرائق نظمه، وليس بسجع متوازنٍ كسجع الكهان،

ومع ذلك تنساب أنغامُه انسيابًا في عذوبة وسلاسة وتآلف عجيب، وكأنه تيار موسيقي تتفجر منه النغمات من أعلاه ومن أسفله على حد قول الوليد، ولعلَّ من بين ما تدل عليه عبارته: عمق التناسق بين أنغامه العالية القوية وبين أنغامه الرقيقة الهادئة المنسابة.

والنغم القرآني ينبعث من أصواته، وحسن جَرْسِه، وتآلف ألفاظه، وطرائق الأداء المعروفة في فن التجويد منذ عصر النبوَّة، ويشهد لهذا ما رواه أبو هريرة عنِ النبي ﷺ أنه قال: "ما أَذِنَ الله لشيء ما أذن للنبي أن يتغنَّى بالقرآن" [٩].

والتغنِّي بالقرآن يعني تجويده، بإعطاء كلِّ صوتٍ من أصواته ما يستحق من صفات وامتداد وعمق وتلوين؛ حتى يظهر المعنى وظلال المعنى في وضوح تامٍّ، وفي أداء جمالي ممتع للسمع والفؤاد.

وليس من قبيل المصادفة أن القرآن الكريم قد أُنْزِلَ على قلب محمد ﷺ.. إنَّه خطاب إلى القلب؛ ولذلك كان

للإيقاع فيه نصيب كبير، قال الله ﷻ: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ٩٧).

والإيقاع القرآني يهز القلوب ويأخذ بمجامعها؛ ولذلك كان للنبي ﷺ عند سماع القرآن أحوالٌ، فتارة يرتجف، وتارةً ينبسط... وهكذا بحسب المعاني التي تتضمنها الآيات والإيقاع المصاحب لها.

وقد ارتبط أداء القرآن الكريم بالمقامات الموسيقية العربية كالبياتي والنهاوند والرَّست والحجاز والصَّبا وغيرها، ولكل مقام من هذه المقامات طرق عديدة وأساليب متباينة في إبراز وجوه النغم القرآنيّ المتنوِّع والفريد.

وينبعث النغم القرآني من توالي المقاطع الصوتية على مسافات منتظمة متقاربة، بما يمنح الأذن إحساسًا بالتوازن الإيقاعي، دون رتابة أو جمود كالذي نُحِسُّ به حين نسمع الأسجاع المتماثلة في مقاطعها، فالنغم القرآني متوازن الإيقاع ومتجدِّدٌ في آنٍ واحد؛ لتنوعِ الفواصل أو المسافات الفاصلة

بين مواضع النبر في الكلمات، واختلاف الكلمات طولًا وقِصَرًا.

هذا بالإضافة إلى تلوين الأداء القرآني وتحسينه عن طريق المدِّ والغُنَّة والسَّكْت القصير والسكون، وغير ذلك من خصائص التلاوة القرآنية التي تضيف إلى عظمة النغم القرآني توازُنَ الإيقاع، فتجويد القرآن يشتمل إلى جانب إعطاء الأصوات حقَّها على أمور أخرى، منها: المد بأنواعه، والغنة، والسكت، وما إلى ذلك مما يُعَدُّ من قبيل الانقطاع المؤقت لتوالي الأصوات التي تتكون منها الألفاظ.

هذا النوع من الترتيل يضيف إلى إيقاع القرآن الكامن في نظمه إيقاعًا آخر طارئًا عليه من خلال الأداء والقراءة، فإذا اجتمع الإيقاع الصوتي وذلك الإيقاع الترتيلي لم يكن للأذن إلا أن تستمع وتنصت وتستمتع بالجمال، وسبحان الله ﷻ إذ يقول لعباده المؤمنين: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠٤) [١٠].

كما أن القُـرَّاء المجيـدين يسـتطيعون إبـراز المعـاني القرآنيـة صـوتيًّا عـن طريـق التنغـيم؛ أي رفـع الصـوت وخفضـه وتلوينـه بـألوان مختلفـة تعبِّـر عـن الفـرح، أو الحـزن، أو الخـوف، أو الدهشـة، أو التعجـب، أو الغضب، أو الرضا... إلخ.

- **الإيقاع في العربية:**

مصـطلح الإيقـاع فـي العربيـة مسـتمدٌّ مـن وَقْـعِ المطـر، وهـو فـي عـرف أهـل اللغـة عبـارة عـن «اتفـاق الأصـوات والألحان وتوقيعها في الغناء أو العزف»[11].

والإيقـاع غيـر الـوزن، ومـن المناسـب أن نشـير - هنـا- إلـى الفـرق بينهمـا، إذ طالمـا اخـتلط الأمـر بشـأنيهما؛ ذلـك أن الـوزن عنـدما يتمثـل لـدى بدايـة تركيـبٍ مـا، فإنـه "يفتـأ قائمًـا دون أن يصـيبه تغييـر إلـى نهايتـه، مثلـه مثـل

الشـــكل الميكـــانيكيِّ؛ فـــي حـــين نجـــد أنَّ الإيقـــاع خَلْـــقٌ جماليٌّ مَحْضٌ "[١٢].

- **الإيقاع في القرآن:**

من دوافع الاهتمام بإيقاعية القرآن الكريم: خروج هذه الإيقاعية عن منظومة أشعار العرب وما أَلِفُوه فيها؛ حيث وجدوا أنفسهم أمام ظاهرة متمثلة في «اتساق القرآن، وائتلاف حركاته وسكناته، ومدَّاته، وغُنَّاته، واتصالاته، وسكتاته، ذلك ما يسترعي الأسماع، ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم أو منثور»[١٣].

إن السمات البارزة في بنية الخطاب القرآنيّ، لهي ذلك الترتيب في الحروف باعتبارٍ من أصواتها ومخارجها، ومناسبة كُلٍّ للآخر مناسبةً طبيعية: همسًا وجهرًا، شدة ورخاوة، تفخيمًا وترقيقًا، تفشِّيًا وتكرارًا.

وإذا ما رُمْنَا تَمَثُّلَ ذلك بآذاننا، بل بوجداننا وإحساساتنا، فلنستمع إلى مطلع سورة العاديات وهي تُتلَى علينا؛ فما من شك أن أول ما يطرق آذاننا هو تلك الحركات

والطرقات المتواليات، كما تفعل«الخيول» حال ركضها قالبًا بقالب، فلا ريب أن الألفاظ تفعل فينا ما هو أجمل وأجلُّ من السِّحْرِ بمنتهياتها المتماثلة في قوله ﷻ: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾ (العاديات).

ويؤكد الرافعي أن المدار في هذه السورة قائمٌ بشكل جَليٍّ ومسموعٍ على خاصية الإيقاع؛ فيقول:

«ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرَى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، فيهيئُ بعضُها لبعضٍ، ويساند بعضُها بعضًا، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات

الحروف، متساوقة معها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيًّا كان؛ فلا تَعْذُب ولا تُساغ، ربما كانت أَوْكس النصيبين في حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استُعْمِلَتْ في القرآن رأيت لها شأنًا عجيبًا، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقًا في اللسان، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي، حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأَرَقَّه» (١٤).

ومصطفى صادق الرافعي إذ يؤكد هذه الخصيصة لم يفتأ يُقَدِّم الشاهد تِلْوَ الآخَرِ على ما يذهب إليه، ومن ذلك إيراده للفظة: (النُّذُر)، وفي ذلك يقول: «فإن الضمة ثقيلة فيها - أي لفظة النذر- لتواليها على النون والذال معًا، فضلًا عن جَسْأَة هذا الحرف - صلابته أو صعوبة النطق به - ونُبُوِّه في اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام، فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه، ولكنه جاء في

القرآن على العكس، وانتفى من طبيعته في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ﴾ (القمر: ٣٦).

فتأمل هذا التركيب، وأَنْعِمْ ثم أنعم على تأمله، وتَذَوَّقْ مواقعَ الحروف، وأَجْرِ حركاتِها في حِسِّ السمع، وتأَمَّلْ مواضع القلقلة في دال (لقد)، وفي الطاء من (بطشتنا)، وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو (تماروا)، مع الفصل بالمد ... ثم رَدِّد نظرك في الراء من (تماروا)، فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء (النذر)، حتى إذا انتهى اللسان إلى هذا انتهى إليها من مثلها، فلا تجفو عليه ولا تغلظ، ثم اعْجَبْ لهذه الغُنَّة التي سبقت الطاء في (أنذرهم)، وللغُنَّة الأخرى التي سبقت الذال في (النذر)»[١٥].

ونرى سيد قطب لا يكتفي بالتلويح إلى احتواء النظم القرآني على الإيقاعية من باب وصفها السطحي، وإنما نلقيه في الكثير من المرات يقف وقفة المتأمل في هذه الخصيصة التي امتاز بها القرآن، ومتتبعًا لأسرارها وحقائق تواجدها بشكلها المتميز، وهو لذلك يقول:

«فأما تنوُّع أسلوب الموسيقى وإيقاعها بتنوع الأجواء التي تُطْلَق فيها؛ فَلَدَيْنَا ما نعتمد عليه في الجزم بأنه يتبع نظامًا خاصًّا، وينسجم مع الجو العام باطِّراد لا يَسْتَثْنِي»[١٦].

وهو ـ أيضًا ـ يحاول الربط بين جو النص القرآني والإيقاع، فيرى بعد تفحصٍ وإمعانٍ أن ذلك الإيقاعَ ما هو إلا انعكاسٌ للجو العام الذي يطبع الخطاب المُدْرَج فيه، فهو يرى أن جو سورة (النازعات) أشبه بالزلزال الكبير الذي يُفقد كل شيء توازنه، وتترادف مزعجاته، فإذا القلوب مضطربة والأبصار كسيرة، "ذلك الجو سريع النبض، شديد الارتجاف، والذي ينسجم تمام الانسجام مع إيقاعها؛ حيث هذه

المقطوعة سريعة الحركة، قصيرة الموجة، قوية المبنى"[١٧].

كما أنه يرى في قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (هود).

يرى فيه ذلك الجوَّ المفعم بالرعب والهول والفزع، والذي ينسجم تمام الانسجام مع إيقاع هذا المقطع القرآني؛ حيث «إن التكوين الموسيقي للجملة ليذهب طولًا وعرضًا في عمقٍ وارتفاعٍ؛ ليشترك في رسم الهول العريض العميق، والمدات المتوالية المتنوعة في التكوين اللفظي للآية تساعد في إكمال الإيقاع وتكوينه واتساقه مع جو المشهد الرهيب العميق»[١٨].

ومن ذلك أيضًا، ما ذكره الشيخ محمد الغزالي عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠ ﴾ (القمر)؛ إذ يقول: "وكنتُ أسمع هذه الآيات من فم قارئ نديِّ الصوت وقف على كلمة ﴿مَغۡلُوبٞ ﴾ وأطال مدَّ الواو ستّ حركات مليئة بالقهر والضراعة والاستنجاد، خُيِّلَ إليَّ أنها امتلأت بآلام تسعة قرون ونصف من جهاد الدعوة وفشل الاستجابة، ونظرتُ حولي فرأيت الدموع تطفر من الأعين رقَّة لعبودية نوح واستغاثته"[19].

ويشير الدكتور صبحي الصالح إلى الإعجاز في نغم القرآن بقوله: «إن هذا القرآن - في كل سورة منه وآية، وفي كل مقطع منه وفقرة، وفي كل مشهد منه وقصة، وفي كل مطلع منه وختام - يمتاز بأسلوب إيقاعي غنيٍّ بالموسيقى، مملوءٍ نغمًا، حتى ليكون من الخطأ الشديد في هذا الباب أن نُفاضِلَ بين سورة وأخرى، أو نُوازِنَ بين مقطع ومقطع، لكننا حين نومئ إلى تفرُّد سورة منه بنسق خاص، إنما نقرر ظاهرة

أسلوبية بارزة نؤكِّدها بالدليل، وندعمها بالشاهد، مؤكِّدين أن القرآن نسيج واحد في بلاغته وسحر بيانه، إلا أنه متنوِّعٌ تنوُّعَ موسيقى الوجود في أنغامه وألحانه!»[٢٠].

وعن اللفظة القرآنية يقول الدكتور صبحي الصالح: «تكاد تستقل - بجرسها ونغمها - بتصوير لوحة كاملة؛ فيها اللون زاهيًا أو شاحبًا، وفيها الظل شفيفًا أو كثيفًا... وحين تتسمع همس السين المكررة تكاد تستشف نعومة ظلها مثلما تستريح إلى خفة وقعها في قوله ﷻ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾ (التكوير). وتقرأ قوله ﷻ: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾ (آل عمران: ١٨٥)، فلا ترى في المعجم غير كلمة «زحزح» تُصَوِّر مشهد الإبعاد والتنحية، بكل ما يقع في هذا المشهد من أصوات.. وما أحسب شفتيك إلا منطبقتين استقباحًا واستهجانًا لحال الكافر الذي يتجرع صديده ولا

يكاد يسيغه، في قوله ﷻ: ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ (إبراهيم: ١٦-١٧).

ولا أحسبك إلا مستشعرًا عنف لفظة الكبكبة في قوله ﷻ: ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾ (الشعراء: ٩٤)، **حتى لتكاد تتصور أولئك المجرمين يُكَبُّون على وجوههم أو على مناخرهم، ويُلْقَوْنَ إلقاءَ المهمَلين، فلا يقيم أحد لهم وزنًا!»**[٢١].

ويشير الدكتور محمد عبد الله دراز إلى التفرُّد في النظم الصوتي للقرآن قائلًا: «أول ما يلاقيك ويستدعي انتباهك من أسلوب القرآن الكريم، خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره»[٢٢].

ويضيف الدكتور دراز: « دع القارئ المُجَوِّد يقرأ القرآن يرتِّله حقَّ ترتيله نازلًا بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلًا بالقرآن على هوى نفسه، ثم انتبِذْ منه مكانًا قصيًّا لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها،

ومَدَّاتها وغُنَّاتها، واتصالاتها وسكتاتها، ثم أَلْقِ سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد جُرِّدَتْ تجريدًا وأُرْسِلَتْ ساذَجةً في الهواء، فستجد نفسك منها بإزاء لحنٍ غريب لا تجده في كلام آخرَ لو جُرِّدَ هذا التجريد وجُوِّدَ هذا التجويد»[٢٣].

إن موسيقى القرآن وإيقاعه لا ينبعان من جرس الحروف والكلمات، ولا من تجانس الأصوات والتراكيب فحسب، بل من هذا التآزر بين الصوت والمعنى، بين الأنغام الخارجية والنغم الداخلي المنبعث من المعاني وظلالها المرهفة الباعثة على التأمل العميق والتدبُّر المتأني لكلماته وآياته، فترتعد لوَقْعِه القلوب، وتقشعرّ الجلود، ثم تلين وترقّ خاشعة لذكر الله.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ (الزمر: **٢٣**).

وسبحان من هذا كلامه!

وما يعقلها إلا العالمون.

وما يتذكر إلا أولو الألباب.

****

المسألة الثالثة

الفاصلة بين التناسق الصوتي ورعاية المعنى

أودُّ هنا - بدايةً - توضيح ملاحظة تتصل بأدب السلف الصالح مع القرآن الكريم، حيث أطلقوا على نهايات الآيات القرآنية تسمية "رءوس الآيات"، تمييزًا لها عن مصطلحات الشعر والنثر، ففي الشعر نقول: صدر البيت وعجزه، وفي النثر نقول: بداية الجملة ونهايتها، فبداية الآية عندهم كنهايتها: رأس، أي مستوى من الارتفاع والارتقاء لا ينتهي ولا يهبط أبدًا، والوقف عند الرأس يشعر بأن آيات القرآن قِمم يرقى القارئ إليها، وكلَّما مضى في القراءة ازداد رقيًّا، فهو صاعد أبدًا؛ حيث يقال لقارئ القرآن: «اقرأ وارْقَ، ورتِّل كما كنت ترتل في الدنيا؛ فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[٢٤].

ومعلوم أن رءوس الآيات توقيفية، أي كما جاءت بالتلقي عن سيدنا رسول الله ﷺ. والملاحَظ في رءوس الآيات

النغم الصوتي الذي يلفت الانتباه وتستريح له الأذن إلى حد يأخذ بالنَّفس، ولعله كان أحد الأسباب التي جعلت الوليد يقول بعد سماعه القرآن الكريم: «إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة»، وهما من حِسِّ اللسان وحِسِّ الأذن.

- وإذا ما حاولنا الكشف عن الظاهرة بأسلوب علمي، وذلك بتتبع أصوات الحروف والحركات التي تُكَوِّن هذه الفواصل بهذا التناسق الصوتي المبدع، فإننا نلاحظ التالي:

–كثرة الحركات، وبخاصة الطويلة (حروف المد: الألف والواو والياء)، بما لها من نغمات منتظمة تسيطر على لحن الكلام.

–كثرة ورود الصوامت المتوسطة (النون، الميم، الراء، الواو، الياء)، وهي قريبة - من الناحية الفيزيائية - إلى طبيعة الحركات، التي تسهم في خاصية التنغيم الشجيِّ بشكل واضح.

–يُدَعِّمُ هذا ظواهرُ صوتيةٌ خاصَّةٌ بالقرآن كالمَدِّ والغُنَّة.

وكل هذه العناصر الصوتية لا تكون بهذا التناسب الفريد في غير القرآن من فنون الشعر والنثر.

سؤال اعتراضي: هل هذا التناسب الصوتي هو من قبيل السجع؛ حيث يتوالى الكلام المنثور على حرف واحد؛ ليكتسب النثر ضربًا من الموسيقى والنغم؟ أَمْ هو من قبيل القافية في الشعر؟

والجواب: لا هذا ولا ذاك؛ فالفاصلة في القرآن ليست على وتيرة واحدة، كما هو الحال في كلٍّ من السجع والقافية، فهي لا تلتزم شيئًا من ذلك؛ حيث تجري في عدد من آيات القرآن على نمط، ثم تتحول عنه إلى نمط آخر، ومن خلال جريها على نمط واحد، فأغلب ما تقوم عليه هو حرف المد كما في هذه الآيات:

﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا

جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦﴾ (ق).

• **والفاصلة قيمة صوتية ذات وظيفة دلالية، ورعايتها تؤدي إلى تقديم عنصر أو تأخيره، ليس رعاية للتناسق الصوتي فحسب، بل رعاية للمعنى أيضًا، وهذا هو ما يتفرد به القرآن الكريم.**

ومثاله قول الله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ (الفاتحة).

فإن قلت: لمَ قدَّم العبادة على الاستعانة؟ أجابك اللغويون القدماء أصحاب الحس المرهف، وعلى رأسهم الزمخشري؛ حيث قال: «هو من تقديم العلة على المعلول». وقال أبو السعود: «هو من تقديم الأشرف».

وقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ (الليل)، لماذا قدم الآخرة على الأولى؟ والجواب: أن ذلك مرتبط بسياق السورة ومقصدها، فقد قامت السورة لتأكيد سوء العاقبة والإنذار لمن كذَّب وأعرض بالتنكيل به في الآخرة، في مقابل الثواب الذي ينتظر من أحسن وتصدَّق، فإذا ما تحقق مع هذا المعنى الانسجام الصوتي وتناسب الإيقاع في الفواصل، فذلك لا يتم على هذا الوجه من الكمال في غير هذا النظم القرآني المعجز.

ومن قال بالتقديم لرعاية الفاصلة فحسب، فهو قصور عن فهم المعنى المراد؛ فالتقديم والتأخير يرتبطان بالسياق والمعنى المراد.

كذلك، فإن الترتيب في تقديم الصفات الخاصة بالله تبارك وتعالى، أو الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - مرتبطٌ بالسياق، من ذلك قوله ﷻ: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ (سبأ).

وقوله ﷻ: ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ (الحجرات).

فقَّدم الرحمة في آية سبأ؛ لأنها منشأ المغفرة. أما الغفور فتُقدَّم في كلِّ موضعٍ في القرآن فيه ولو إشارةً إلى وقوعِ المعاصي وكفران النعم[٢٥].

- وإنَّ ممَّا يلفت الانتباهَ أن القرآن الكريم قد خلا من التنافر في بنية كلماته، فأصواته كلها قامت على الائتلاف، هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد سجلت كلمات القرآن الكريم قمة التناسق بين أصواتها والمعانى المرادة لها، وهذا

هو الجديد في الصوت القرآني: أن يُوَظَّف الصوت المفرد داخل الكلمة لخدمة المعنى المقصود، ومن ذلك كلمات: الصَّاخَّة، الطَّامَّة، القارعة، وكلُّها أسماء ليوم القيامة، وقد جاءت حروف الاستعلاء: الصاد في (الصَّاخَّة)، والطاء في (الطَّامَّة)، والقاف في (القارعة)، وتلا كلًّا منها حرفُ المد (الألف) ليعطي أقصى مدًى من التفخيم. وفي هذا إشارة إلى أبلغ القوة والشدة والمفاجأة.

وسبحان من هذا كلامه!

وما يعقلها إلا العالمون.

وما يتذكر إلا أولو الألباب.

المسألـــة الرابعـــة

إيحاء الصوت بالمعنى

يُقْصَدَ بإيحاء الصوت بالمعنى: أن يُوحِيَ جَرْسُ أصوات الكلمة بمعناها الذي رُصِدَ لها في المعجم، فيلتقي الجَرْسُ

والعُرف عندئذٍ لا على مصادفةٍ ومحض اتفاق، ولكن انتقاء اللفظ يكون عن تعمُّد وحسن اختيار [٢٦].

وإن من بلاغة القرآن وتفرُّده الرائع في الدلالة: ارتباط الصوت بمعانيه ارتباطًا وثيقًا. وقد تأكَّد لعلماء العربية أنّ الجانب الصوتي ركنٌ أساسي في بناء التعبير القرآنيّ في مواضع عدة من التنزيل. وقد تنبَّه اللغويون القدماء إلى هذه الظاهرة الصوتية، فنقل ابن جني عن الخليل قوله: "كأنهم توهموا في صوت الجُنْدُب استطالةً ومدًّا فقالوا: صَرَّ، وتوهَّموا في صوت البازي تقطيعًا فقالوا: صَرْصَر" [٢٧].

وعقد ابن جني لهذه الظاهرة بابًا أسماه: "باب في إمساس الألفاظِ أشباهَ المعاني"، ساق فيه ما ذكره الخليل وسيبويه، ثم أورد أمثلة عديدة، نجتزئ منها قوله:

"فأمَّا مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسعٌ" [٢٨]، و"نَهْجٌ مُتْلَئِبٌّ عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيرًا ما يجعلون أصوات الحروف على سَمْتِ

الأحداث المُعَبَّر بها عنها فَيُعَدِّلونها بها ويحتذونها عليها. وذلك أكثر مما نُقَدِّره وأضعاف ما نستشعره، من ذلك قولهم: خضم، وقضم، فالخَضْمُ لأَكْلِ الرَّطْب، والقَضْمُ للصُلْبِ اليابس، فاختاروا الخاء لرخاوتها للرَّطْبِ، والقاف لصلابتها لليابس؛ حَذْوًا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث "[٢٩].

لكنَّ ما في القرآن الكريم من تجلياتٍ لهذه الظاهرة الصوتية أوسع بكثير مما ذكره ابن جني، فلقد فجَّر القرآن طاقات الصوت في العربية إلى أقصى مدًى، بحيث إننا نتخيَّل - بل نكاد نرى - المشهدَ المعبَّرَ عنه إذا ما لامست أسماعَنا كلماتُه.

• فحين يريدُ القرآنُ أن ينقلَ للناس صورة النار - على جهة التخويف والإِنذار- وهى مهتاجةٌ مغتاظة غاضبة، يختارُ الحروفَ الهادِيَة إلى هذه المعاني التي تصوِّرُ بجرسها هذا

العُنْفَ، وذلك الغضبَ، فالصورةُ الصوتيةُ للحرف تشكِّلُ المادَّةَ الأولى للقيم اللفظية.

فمثلًا هذه [الظاء والشينُ[30]] في (شُواظٌ) من قوله تعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ (الرحمن: ٣٥).

و[الشينُ والهاءُ] في (شهيقًا) من قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴾ (الملك: ٦ – ٧).

و[الفاءُ] في (زفيرًا) من قوله تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ (الفرقان: ١٢).

و[الظاء] من (تلظَّى) من قوله تعالى: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ (الليل: ١٤).

كذلك حرفُ [الخاءِ] في (مواخر) من قوله تعالى:

﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾

(النحل: ١٤)

فهذا الحرفُ يحمل إلى أذنِ السامِع صوتَ البواخر، وهي تمخُر عُباب البحر، وتشقُّ أمواجَ الماء، أملًا في الخير، وابتغاءً للرزق.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴾ (مريم: ٨٣)، أي تزعجُهم وتقلقُهم، وهذا في معنى [تهزهم هزًا]، و[الهمزَةُ] أختُ [الهاء]، إلا أن [الهمزَة] أقوى من [الهاءِ]، فتقارَبَ اللفظان لتقارُبِ المعنَيَيْنِ، وكأنهم خَصُّوا هذا المعنى بالهمزة؛ لأنها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظمُ في النفوس من (الهَز)؛ لأنك قد تهُزُّ مَا لا بَال له كالجذعِ وساقِ الشجرة، وهذا ما قاله صاحب الخصائص.

ويقول تعالى في وصف الجنتين: ﴿ فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ (الرحمن: ٦٦) فحرف الخاء يصوِّر بغلَظِه، وصوتِ جَرْسه قوةَ الماء وكثرتَه، إذ [النضخُ] -بالخاء- أقوى من

[النضْـحِ] ـ بالحـاء ـ فقـد جعلـوا [الحـاءَ] ـ لرقتهـا ـ للمـاء الضعيف، و[الخاءَ] ـ لغِلَظها ـ لما هو أقوى قِياسَ المسموعِ من الأصوات على محسوسِ الأحداث.

• ومن أمثلة ذلك: التكرار لبعض الأصوات بما يوحي بالتتابع، نحو قول الله ﷻ: ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (الشعراء)، أي: سقط بعضهم فوق بعض، وتكرار صَوْتَي الكاف والباء (كب . كب) يوحي بهذا السقوط المتكرر.

ومثـل ذلـك قولـه ﷻ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ ﴾ (الزلزلـة). حيـث دلَّ تكـرار صـوتي الـزاي والـلام علـى قـوة الاضطراب والارتجاف.

ومن ذلك: التشديد بعد قلب التاء حرفًا مجانسًا لما يليها، نحو قوله ﷻ: ﴿فَٱدَّٰرَءْتُمْ فِيهَا﴾ (البقرة: ٧٢). الأصل: تدارأتم، فقُلبت التاء دالًا وأُدغمت في الدال التالية فنتج عن ذلك التشديد الذي يدل على حدة التنازع والتشاحن.

ومثله قول الله جل ثناؤه:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا ﴾ (الأعراف:٣٨).

أصل الفعل: تداركوا، وقُلبت التاء دالًا وأُدغمت في الدال، فلما سُكِّنت جيء بهمزة الوصل، والتشديد يوحي هنا بتداعيهم في النار متزاحمين بغير نظام، بل إن اشتمال التشديد على سكون فحركة يدل على أن تزاحمهم في النار جعل بعضهم يعوق بعضًا قبل أن يَتَرَدَّوْا فيها، فكأن النقطة التي تداعوا عندها كانت كعنق زجاجة.

ومن هذا أيضًا (اثَّاقلتم) في قوله ﷻ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ (التوبة: ٣٨).

- **وذلك فيما يوحيه التفخيم من الإحساس بالمبالغة في الحدث أو الصفة، ومن ذلك قوله ﷻ:**

﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (فاطر: ٣٧).

فكأن ارتفاع الصوت بالصراخ ومشاركتهم جميعًا فيه، وتكرار ذلك منهم لا يكفي أن يُعبَّر عنه بالفعل المجرد (يصرخون)، فجاءت تاء الافتعال لتدل على المبالغة، وقُصِدَ لها أن تجاور الصاد المطبقة فتتحول بالمجاورة إلى التفخيم فتصبح طاءً؛ ليكون في تفخيمها فَضْلُ مبالغةٍ في الفعل.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ﴾ **أبلغ من** (يصرخون)؛ **للإشارة إلى أنهم يصرخون صراخًا منكرًا خارجًا عن الحدِّ المعتاد**[٣١].

ومن ذلك، ما حكاه السيوطي في "الإتقان" عن الفرق بين قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ (البقرة: ١٧٩)،

وبين قول العرب "القتل أَنْفَى للقتل"؛ حيث ذكر عشرين وجهًا للفرق بينهما، من ذلك:

١- أن في المثل توالي أسباب كثيرة خفيفة، وهو السكون بعد الحركة، وذلك مُسْتَكْرَه.

٢- سلامة الآية من تكرير قلقلة القاف الموجب للضغط والشدة وبعدها غُنَّة النون (كما فى المثل).

٣- اشتمال الآية على حروف متلائمة، لما فيها من الخروج من القاف إلى الصاد؛ إذ القاف من حروف الاستعلاء والإطباق، بخلاف الخروج من القاف إلى التاء التي هي حرف منخفض، فهو غير ملائم للقاف، وكذا الخروج من الصاد إلى الخاء أحسن من الخروج من اللام إلى الهمزة؛ لبُعْد ما بين طرف اللسان وأقصى الحنك.

٤- سلامتها من لفظ (القتل) المُشعر بالوحشية، بخلاف لفظ (الحياة)، فإن الطباع أميل له من لفظ (القتل)[٣٢].

ومن ذلك أيضًا قوله ﷻ:

﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾ (النجم). و(ضيزى) تعني: جائرة ظالمة، لكن لفظ (ضيزى) جاء هنا ليحقق غرضين هما: رعاية الفاصلة التي غلبت فيها الألف المقصورة، والثاني: الإيحاء – بما في الضاد من تفخيم – إلى أن الجور في هذه القسمة لا مزيد عليه.

ومجيء (ضيزى) في هذا الموضع لا يسدُّ مسدَّها؛ لأن السورة كلها مجموعة على الألف المقصورة من أولها إلى آخرها؛ لذا جاءت السورة جميعها عليه.

على أن كلمة (ضيزى) من الألفاظ المتفردة في تركيبها أيضًا؛ إذ ليس في كلام العرب صفة على وزن (فِعلى)، قال الجوهري: ليس في فِعْلَى صفة، وإنما هو من بناء الأسماء كالشِّعْرَى والدِّفْلَى.

وقوله ﷻ:

﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ ﴾ (البقرة: ١٩).

والصَّيِّب: النزول الذي له وقع وتأثير، ويُطْلَق على المطر والسحاب، وتنكيره لِمَا أنه أُرِيدَ به نوعٌ شديدٌ هائلٌ، كما أن الصاد المستعلية (المفخمة) والياء المشددة والباء الشديدة - تدل على القوة والتدفق وشدة الانسكاب.

وكان الفارابي (ت ٣٣٩ هـ) قد التفت إلى ما سمَّاه بعض المحدثين "الحاسَّة الموسيقي"، وسمَّاه هو "الهيئة الشعرية"، وكونها مركوزة في الإنسان منذ تكوينه، أو على حدّ قوله: «مركوزة فيه من أول كونه» (٣٣).

وهي في اللغة العربية وفي إحساس العربي أكثر ظهورًا، حتى إنَّ كثيرًا من الباحثين يصف لغتنا بأنها لغةٌ موسيقيةٌ، وأنها انحدرت إلينا وقد اكتسبت هذه الصفة منذ أقدم نصوصها(٣٤).

وتلك الخصيصة أكسبت سمع العربي قدرة عالية في التمييز بين الفروق الصوتية الدقيقة، فكان حِسُّه مرهفًا يستريح لجنسٍ من الكلام لحسن وقعه، وينفر من آخر لِنُبُوِّ جرسه[٣٥].

ولقد بلغ القرآن الكريم الذروة في التأثير في سمع العربي ووجدانه، وذلك بعذوبة جَرْسه وجمال إيقاعه ونغمه، وما لذلك من صلة بدلالته.

إنّ الإيحاء الصوتي في القرآن ينهض به الصوت اللغوي وحده، مفردًا كان أو مركَّبًا، فيصوّر المعنى - الذي في السياق- بدقَّة، بحيث لا يسدُّ آخَرُ مَسَدَّه.

- **فمن الأصوات المفردة (الصوائت) *Vowels* : ألف المدّ وياء المدّ؛ إذ لهما إيحاءان صوتيان متغايران يستشعرهما السامع النابه المتأمّل، أحدهما (صاعد) بألف المدّ، والآخر (هابط) بياء المدّ، وكلاهما وردا في سياق واحد، هو قوله ﷻ:**

﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ (ق).

فعند الوقوف في التلاوة على لفظة (بَاسِقَاتٍ) تُمَدُّ الألِفُ فيها ستَّ حركات، وهو المدُّ العارض للسكون(٣٦)؛ لِتُصَوِّرَ هذا الامتداد إلى علوٍّ في بُسوق النخلة وارتفاعها في الجوِّ بتلك الرشاقة الجميلة، التي تنتهي في أعلاها بذلك السعف الجميل المتهدِّل على جوانب قمّتها من كل جهة، حتى إنها لتبدو كالفتاة الفرعاء (٣٧).

فإذا تلا القارئ بعد ذلك لفظة (نضيد)، ووقف على الدال، استشعر السامع بهذا المدِّ الهابط (الياء) خلاف ما استشعره بذلك المدِّ الصاعد، الذي قَبْلَهُ في (بَاسِقَاتٍ)؛ إذ يستشعر بسمعه قبل بصره هذا التنضيد الذي في الطَّلْعِ، وقد غُطِّي بغطائه الربّاني الجميل ذي الرائحة الذكية العبقة.

- ومن إيحاء الأصوات المفردة في تعبير القرآن:

إيحاء (الهمزة)، وإيحاء (الهاء) في سياقيهما؛ إذ ورد كلٌّ منهما في سياق مغاير – دلاليًّا – لسياق الآخر، وهذا يعود

إلى تغاير صفة كل منهما من الناحية الصوتية، وإنْ كانَا من مخرجٍ واحد هو الحنجرة؛ إذ الهمزة صوت شديد انفجاري، بل هو أشدّ الأصوات اللغوية في العربية، على حين عُدَّت الهاء من الأصوات الرِّخوة والمهموسة الضعيفة، بل هي أضعف أصوات العربية.

فإذا تدبَّرْنَا الكتاب المعجز المبين - القرآن الكريم - وجدنا الهمزة فيه قد وردت في سياق يوحي بالشدة، متمثّلًا بهذا التركيب الفعلي المؤكد بالمصدر في قوله ﷻ:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾

(مريم : ٨٣).

ووجدنا (الهاء) قد وردت في سياق مغاير له، بل هو مضادٌّ له دلاليًّا من حيث الإيحاء؛ إذ وردت في تصوير ما أُمرت به مريم ابنة عمران - عليهما السلام - ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ﴾ (مريم: ٢٥). حين أتاها الطَّلْق، فضاقت بذلك

ذرعًا؛ إذ كيف يُولَدُ لها ولدٌ وهي لم تتزوج بَعْدُ؟ فكان النداء الذي سمعته مُطَمْئِنًا لها من ناحية، وآمرًا إياها بهزّ جذع النخلة التي أَوَتْ إليها تستظلُّ وتَسْتَتِرُ بها بعد أن أمرها ألا تحزن من ناحية أخرى. وذلك بقوله ﷻ:

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ ﴾(مريم).

فقال الله ﷻ: **(هُزِّي) هنا، ولم يقل: (أُزِّي)، كما قال في آية إرسال الشياطين على الكافرين: (تؤزُّهم)، ولم يقل: (تهزُّهم)، وذلك للفارق الدلالي بين السياقين: سياق الشدة والعنف، وسياق اللِّين والحنان، في تَوَازٍ مع الفارق الصوتي بين الهمزة الشديدة المجهورة والهاء المهموسة. وهذا من رائع بيان القرآن ودلائل إعجازه.**

- **وإذا كان إيحاء (الألف) في فواصل آيات مريم جميلًا باعثًا على التأمُّل المُفْضِي إلى شكر النعمة، فإنَّ للألف في غير هذا السياق إيحاءً آخرَ؛ نحو قوله** ﷻ: ﴿ ثُمَّ

ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴾ (القيامة: ٣٣)؛ إذ نجدها في هذا الموضع تُشعر بالكِبْر والاستعلاء، في تصوير مِشْيَة كافرٍ من قريش، غَرَّتْهُ مظاهر الدنيا الفانية من مال وجاه وولد؛ فإيقاع الآية مشعر بمِشْية الكِبْر لدى هذا المشرك المتعالي، ولَكِنْ يَهُمُّنا كثيرًا هنا هذه اللفظة التي وقعت فاصلة، وهي: (يتمطَّى)؛ إذ وردت لامُها ألفًا، وهي الطاء الثانية في أصل الكلمة؛ وأصلها: (يتمطَّط)، ولكنّ التعبير القرآني عدل عن الطاء التي في آخر اللفظة إلى الألف بدلًا منها، لا لمجرّد اتِّساق حروف الرويّ – كما في الشعر – فيها مع سائر الفواصل التي تَلَتْها، مثل (أَوْلَى) و(سُدَى) و(يُمْنَى) و(فَسَوَّى) [٣٨].

إنَّ هذا ملحظٌ شكليٌّ ليس هو المراد هنا، وإنْ كان له قيمته الصوتية الإيقاعية المؤثرة في نفس المتلقِّي، وإنما ورد لفظ (يتمطَّى) معدولًا عن أصله الطائي (يتمَطَّطُ) إلى الألف الواقعة حرفَ رَوِيٍّ للفاصلة؛ إيحاءً بتبختر صاحب هذه المشية، وإشعارًا بما في نفسه من الزهو والـخُيَلاء الفارغَيْن من

بواعث الحق والخير؛ إذ معنى (يتمطَّى) في اللغة: يتبختر، وأصله: يتمطَّطُ، أي يتمدّد؛ لأنّ المتبختر يمدُّ خطاه. وقيل: هو من المطا، وهو الظَّهر؛ لأنه يلويه عند سيره [٣٩].

ويَهُمُّنا هنا كيف رَسَمَ المدُّ الصوتي بالألف هذه المشية المكروهة المنهيّ عنها، فإذا قرأنا (يتمطَّى) بأداء صوتي دقيق في التجويد، فأعطينا الطاء الشديدة المطبقة المكررة بالتشديد حقها من الأداء الصوتي، وأتبعناها مَدّة الألف واقفين عليها، حاكت الصورةُ الصوتيةُ بذلك تلك المشية الممقوتة، مشية التلوّي صعودًا إلى الأعلى ونزولًا. وذلك من التصوير الفني في القرآن عن طريق الإيحاء الصوتي، مضافًا إلى الدلالة اللغوية الأصلية للفظة، التي تعرفها العرب في تحاورها.

- ومن الإيحاء الصوتي الإفراديّ: المدُّ بالألف الـمُوحِي بالندم والتوجّع النفسي، في مثل قول الكافر: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾(الزمر: ٥٦) في يوم

القيامة، وقد وقف بين يدي ربه للحساب، وهذا مشعر صوتيًّا بتوجّعه وندمه بهذين المدَّيْنِ اللَّذَيْنِ اكتنفا التعبير، وهما مدُّ (يا) ومدُّ (تا)، مضاعِفًا إحساس المتلقِّي بندم المُلْقَى المرير، فضلًا عَمَّا في نداء الحسرة بحرف النداء (يا) من تشخيص استعاري للحسرة، حين جعلها تُنَادَى كما يُنَادَى العاقل، وهذا من بليغ بيان التنزيل.

• ومن الإيحاء الصوتي بالشعور بالندم: ما تحدثه (هاء السكت) في قول من فَرَّطَ فيما ينبغي عليه أداؤه إزاء ربِّه وأهله، قال الله ﷻ: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الحاقة). فهذه الهاء إذا وَقَفَ عليها القارئ أشبهت الحسرة في انطلاقها من صدر المتحسِّر لندمه.

• وقد يكون الإيحاء الصوتي في تعبير القرآن مقطعيًّا وليس إفراديًّا، كالذي في لفظة (دَمْدَمَ) في قوله ﷻ: ﴿ فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم ﴾ (الشمس: ١٤)، حين عقروا ناقةَ الله

التي أُمِروا بألا يمسُّوها بسوء فغضب الله ﷻ عليهم، فدمَّر قريتهم، فجاء التعبير بهذا اللفظ: (دَمْدَمَ)، بدلالة مزدوجة، إحداهما (لغوية)، وهي الأصلية، أو كما يسمّيها المعاصرون: (مركزية) أو (أساس)، والدلالة الأخرى (إيحائية)، وهي لون من الدلالة الثانوية، أَحْدَثَها إيقاع اللفظة.

وأمَّا وصف هذه اللفظة (دَمْدَم) بأنها مقطعية، فلأنَّها ذات مقطعين متماثلين هما: (دَمْ/ دَمْ)، فلمَّا الْتَأَمَا في اللفظة مكرَّرَيْنِ، أشعر جَرْسُهما المدوِّي بما يشبه القصف: (دَمْدَمَ). وهذه الدلالة الإضافية صَعَّدَت استشعار الشدَّة والغضب في تصوير هذه العقوبة الإلهية العادلة، بمن لم يَرْعَ لله حُرْمَتَه.

• ومن التناسب بين إيحاء الصوت والدلالة المقصودة للكلمة قوله ﷻ: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ (الإنسان: ١٨)، إذ توحي لفظة السلسبيل بالسلاسة ويسر الاستساغة، وذلك لما بين اللفظين (سلسبيل/ سلاسة) من شَرِكَةٍ في بعض الحروف.

هذا في مقابل الإيحاء في جهة الضد للمعنى السابق، كما في قوله ﷻ: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ (النبأ: ٢٥)؛ إذ إن مادة (غسق) في القرآن منها: الغسق، والغاسق، والغسَّاق؛ وتوحي بأن القسط المشترك بين هذه المشتقات هو: الدلالة على أمور كريهة؛ فالغسق: الظلمة، والغاسق: الليل الشديد الظلمة، والغسَّاق: ما يسيل من جلود أهل النار وهو شيء كَرِيهٌ لا يُشْرَب، وفسَّروه بالصديد، وتُسْتَفَاد هذه الدلالة لغويًّا من إيحاء الغين والقاف هنا [٤٠].

ومثله قوله ﷻ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ (المطففين: ٧)، و"سجين" هو موضع فيه كتاب لأعمال الفجرة، ولا يعزب عنا ما للفظة السجن من دلالة لغوية عند السامع. وقوله ﷻ: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ (الغاشية: ٦)، والضريع نبات خبيث مُنْتن يرمي به البحر، وقيل: نبات شوكي، وإيحاء لفظ (ضَرِيعٍ) في الطعام يفيد ذلًّا يؤدي إلى تضرُّع كلٍّ منهم وسؤال الله العفوَ عن ذلك، كما أن الضاد المفخمة توحي بما

فيه من كزازة (قلة الخبز)، كذلك فإن العين الحلقية كأنما توحي بإظهار الكزازة وتأثيرها في الحلق [٤١].

يقابله في المعنى على الجهة الأخرى قوله ﷻ:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ (المطففين: ١٨)

وكذا قوله ﷻ: ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ (يوسف: ٥١).

ومن هذا القبيل قول الله ﷻ:

﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾ (الذاريات: ٢٩)؛ حيث عُبِّر عن هذا الحدث بلفظ مغاير للفظ (الضرب)، الذي استعمله القرآن في موضع أُريد به تأديب الزوجة إذا نشزت على زوجها بضرب غير مُبَرِّح، بعد مرحلتي الوعظ والهجر، واستُعْمِلَ هنا الفعل (صَكَّ) الذي يدلُّ على لطم الوجه تعجُّبًا؛ وهو اللفظ الذي انفرد به هذا الموضع.

فإذا حلَّلنا الفعل (صَكَّتْ) تحليلًا صوتيًّا مع ما لحقه من تاء دالَّة على التأنيث، وجدناه يجمع بين الشدَّة والتفخيم؛

إِذِ الصاد من أصوات الإطباق، والمطبق مفخَّم، والكاف والتاء صوتان شديدان، وزاد من شدَّة الكاف تضعيفها. وبهذا أدَّتْ هذه اللفظة بهذه الأصوات صورة اللطمة الشديدة من جانبها الصوتي الإيحائي، فضلًا عن جانبها اللغوي الدالِّ على الضرب الشديد؛ وبذلك ضاعف الإيحاء الصوتي للصكِّ من دلالته على الضرب الشديد.

ومما ينتظم في هذا السياق، نقل اللفظ من صيغة إلى صيغة أخرى:

أحيانًا يُعْنَى القرآنُ بنقلِ اللفظِ من صيغةٍ إلى صيغةٍ أخرى أكثرَ منها حروفًا، ليُضيف إلى معناها الأصليِّ معنى جديدًا، حتى تَتَقابَلَ قوةُ اللفظ وكثرةُ حروفه، مع قوةِ المعنى وتمكينهِ في النفس، ويتعاونا معًا حتى يصلا بالسامع إلى المعنى المرادِ، والغرضِ المقصود.

فمن ذلك قولهُم: خَشُن واخشَوْشن، فمعنى {خشُن} دُون معنى {اخشوشن} لما فيه من تكريرِ الشين وزيادةِ الواو.

وكذلك قولهُم: أعْشَبَ المكانُ، فإذا رَأَوْا كثرةَ العُشبِ، قالوا : اعشَوْشَبَ، ثم أخذ ابن الأثير يُطبق هذا على ما وَرَدَ في القرآن الكريم ، فقال :

ومما ينتظمُ في هذا السَّلكِ {قَدَرَ واقْتدر}، فمعنى {اقتدر} أقوى من معنى {قَدَر}، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (القمر: ٤٢)

ف { مقتدرٍ} هنا أبلغُ من { قادر } وإنما عُدل إليه - في التعبير القرآنى - للدلالة على التضخيم للأمر، وشدةِ الأخذِ الذي لا يَصدُر إلا عن قوةِ الغضبِ، أو للدلالةِ على بسْطةِ القدرة، فإن {المقتدِر} أبلغُ في البسط من {القادر}، وذلك

أن {مقتدراً} اسم فاعلٍ من {اقتدر}، و{قادرًا} اسم فاعلٍ من {قَدَرَ} ، ولا شك أن {افتعل} أبلغُ من {فعَل}.

ولهذا كان {مقتدرٍ} في الآية الكريمة أبلغ من {قادر}.

وقد وردت هذه الأساليبُ في القرآن الكريم، فَنَرَى الألفاظَ قَدْ زيد فى مبناها لترشدَ إلى الزَّيادة في معناها إذا الزِّيادَةُ في المبنى تدل على الزِّيادة في المعنى.

فقد فَرَّقَ القرآنُ الكريمُ في الاستعمال بين الفعل {كَسبَ، واكَتسبَ}، فعبَّر بالفعل المزيدِ بالألف والتاء فيما فيه كُلفةٌ ومشقةٌ، فقال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ ﴾ (البقرة: ٢٨٦) فلفظُ {الاكتساب} يشعر بالكُلفِة والمشقةِ، والمبالغةِ في جانب السيئةِ لِثقلها[٤٢].

«كما أن حرفَ {علَى} للاستعلاء، ولما كانت السَّيئةَ فيها كُلفةً ومشقة، تخفضُ الإنسانَ وتضعهُ، وتَعْلُوهُ حتى يَخْضعَ لها ويخنَع، كان ذلك موضعَ {على}، ألا ترى أنك

تقول: {هذا لَكَ} و {هذا عليك}، فتستعمِلَ {اللام} فيما تُؤثرهُ، و{عَلَى} فيما تكرهُه .

وهذا من فضل الله تعالى ولطفه، إذ جعلَ الثوابُ على أدنى ملابسة للطاعة، فلهذا أتى فيه بالثلاثي المجرد، وجعل العقاب على مزاولة عظيمة للفعل، وشدة علاج له [٤٣].

وسبحان من هذا كلامه!

وما يعقلها إلا العالمون!

وما يتذكر إلا أولو الألباب.

****

المسألة الخامسة

الإيحاء الصوتي للتراكيب

وقد ينهض التركيب الصوتي بإيحاءٍ معيَّن منبعث من خصائصه في صورته المركبة، من ذلك قول الله ﷻ:

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾ (فصلت).

وُصف الدعاء في هذه الآية بأنه (عريض) أي كثير ممتدّ، ولعل إيثار العرض على الطول هو الأقوى دلالةً على أنَّه دعاء الاستصراخ والاستغاثة الملهوفة... وذكر العرض يومئ إلى سعة الدعاء التي تُومِئ إلى حركة جاهدة من أعضاء النطق، وهذه الحركة تُومِئ بدورها إلى أن ذلك الإنسان قد امتلأت جوانبه بذلك الدعاء. وقد أُوثِرت كلمة "دعاء" على مرادفها "نداء"؛ لأن الدعاء ـ رفع الصوت وخفضه ـ أَدَلُّ على حال

اللهفة والمداومة على الطلب وفقدان السكينة، وهي دلالات يفتقدها النداء المجرد.

ونلاحظ هنا أن البنية الصوتية للموصوف "دعاء" تأتلف مع صفته "عريض"؛ وذلك أن الألف في "دعاء"، سوف يصل صوتها، وتتمكن مدتها؛ لوقوع الهمزة بعدها. وإنما تمكن المد في الألف مع الهمز؛ لأن الهمزة ـ كما يقول ابن جني ـ حرف نَأَى منشؤه، وتراخى مخرجه، فإذا نطقنا بالألف (ويجري ذلك على الواو والياء) قبل الهمزة، ثم تمادينا بالألف نحوها طالت الألف وشاعت في الصوت، فوفَّت لها، وزادت في بيانها ومكانها، وليس كذلك إذا وقع بعد الألف ـ وحروف المد الأخرى ـ غير الهمزة وغير المشدد. ولذلك كان ابن جني يصف حروف المد إذا تلاهن الهمز والحرف المشدَّد، بأنهن ليِّنات، ناعمات، وافيات، مستطيلات (٤٤).

وإذا كان الأمر كذلك، رسخت الألف في المدِّ وتمادى الصوت بها في الموصوف، وكأن الموصوف بما فيه من وفاء الصوت وتمكن المد يحكي معنى الصفة ويطابقها!

العرض . إذن . يومئ إلى الطول، ولا عكس. والعرض فيه التجسيم لصورة الدعاء المتسع. والعرض أقوى تعبيرًا عن الامتلاء بالدعاء. ومن ثم، لا يكفينا أن نتوقف عند تحديد دلالة "عريض" في الآية الكريمة بأنها الكثير كما فعل الشوكاني. إن كلمة (كثير) التي ذكرها الشوكاني تظل قاصرة عن حمل الدلالات والإيحاءات والمعاني الأسلوبية الخصبة التي تحملها كلمة "عريض" قصورًا ملحوظًا للغاية.

لقد حاول الشوكاني تفسير قوله ﷻ:

﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ في ضوء تخريج المعنى في لغة العرب؛ قال: "والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة مجازًا. يقال: أطال فلان في الكلام، وأعرض في الدعاء، إذا

أكثر. والمعنى: إنه إذا مسَّه الشر، تضرع إلى الله واستغاث به، أن يكشف عنه ما نزل به واستكثر من ذلك" [٤٥].

هذا إلى جانب التآزر الخلاق بين الصورة التي ترسمها المفارقة والصوت، في تلك الآية. ونعني بذلك علاقة تكرار صوت العين تكرارًا ملحوظًا (خمس مرات) بصورة المعرض إذا دعا دعاءً عريضًا. فالعين . مخرجًا . صوتٌ حلقيٌّ منخفض خلفي، والعين . صفةً . صوتٌ جهوريٌّ استمراري خشن.

ولعل تمتع العين بهذه الصفات – من قوة إسماع، واستمرارية، وخشونة.. إلخ – مما يجعلها أكثر الفونيمات مواءمة لهذا الدعاء الصادر في تلك الحال بخاصة؛ حال الشدة والضر!

ولعلنا ندرك في السياق الصوتي للآية كلها ملمحًا صوتيًّا آخر؛ هو تردد الأصوات الأنفية، والأصوات الأنفية أصوات رنانة، والأصوات الرنانة هي التي تنتج بشكل التجويف للوترين الصوتيين الذي يجعل الجهر التلقائي ممكنًا. ولعل

مثل هذه الأصوات الرنانة ذات اتصال بالإيحاء بجوّ هذا الدعاء، بما قد يداخله عند مس الضر من أنين وندم.

ونلاحظ في السياق الصوتي الوظيفي للآية ذاتها وظيفة أخرى تشغلها حروف المد، لا سيما الطويلة، التي تكررت في مجموعها تسع مرات، وتلتقي حروف المد صوتيًّا، من حيث طول مدة الاستغراق الزمني للنطق بها، بهذا الضرب من الدعاء العريض؛ حيثما يستلزم العرض هنا الطول!

وفي الخطاب القرآني مواضع أخرى وردت فيها مفردات عينية، تصور حالات فزع وهلع. ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ (المعارج).

وإذا كانت العين في هذه الآيات ترتبط قيمتها التعبيرية بمقامات مجردة يغلب فيها الاضطراب والشدة، فإننا نلاحظ هذه القيمة ذاتها في مقامات محسوسة أيضًا. ومن ذلك لفظ "الدَّع" في قوله ﷻ عن المكذبين:

﴿ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ (الطور: ١٣).

والدع:دفع في الظهر بعنف.ولعله وقع هنا؛ لأنه أقدر من غيره على الإيحاء بما يخرج من المدفوع من صوت غير إرادي، فيه عين ساكنة هكذا: أ ع، وهو في جرسه . كما يقول سيد قطب .أقرب ما يكون إلى جرس الدع(٤٦).

ومن ذلك أيضًا لفظ "البلع" و"الإقلاع" في قوله ﷻ:

﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدًا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

(هود: ٤٤).

بيد أننا إذا عدنا إلى آية (فصلت) السابقة، لاحظنا تردد حركة الفتحة بخاصة تردُّدًا ملحوظًا (بلغ اثنتين وعشرين مرة، منها ثمانٍ للفتحة الطويلة، وأربع عشرة للفتحة القصيرة).

ولعل من الطريف هنا أن نشير إلى أن صفة الاتساع التي تتصف بها الفتحة تتصف بها أصوات الحلق أيضًا، ويرجع ذلك إلى أن "كل أصوات الحلق بعد صدورها من مخرجها

الحلقي تحتاج إلى اتساع في مجراها بالفم، فليس هناك ما يعوق هذا المجرى في زوايا الفم، ولهذا ناسبها من أصوات اللين أكثرها اتساعًا، وتلك هي الفتحة "(٤٧).

وإذا كانت الفتحة تتصف بالاتساع، فإن المدى الزمني لهذا الاتساع مع الألف التي تكررت سبع مرات سوف يصير أطول. إن الألف ـ بما فيها من مد الصوت والإبعاد فيه ـ قد ارتبطت بهذا الدعاء العريض ارتباطًا وثيقًا، ولعل الألف أشد الحركات الطويلة ارتباطًا وحكاية لطبيعة مثل هذا الدعاء، إنها ـ فيما يبدو ـ أحق من أختيها: الواو والياء؛ لأن الألف ـ كما يقول ابن جني ـ أمدّهن صوتًا وأنداهن، وأشدّهن إبعادًا وأنآهن (٤٨).

لقد هيأت هذه المادة الصوتية واللفظية لكلمة "دعاء" رسم صورة ساخرة لإنسان لاهٍ، مُعْرِضٍ، ناءٍ بجانبه، مطمئن إلى نعيم وافاه، قد شغله وأنساه، كما مكنتها من رسم صورة أخرى لإنسان هلعٍ فزعٍ، قد انقلب حاله، فانخرط في دعاء

عريض [٤٩].

سبحان من هذا كلامه!

وما يعقلها إلا العاقلون.

وما يتذكر إلا أولو الألباب.

****

المسألـــة السادســـة

التناسب والتناسق بين نوع الحركة والمعنى

التناسب والتناسق بين الحركة (فتحة وكسرة وضمة وسكون) ومعنى الكلمة في سياقها أمْرٌ يثير الانتباه أمام هذه العظمة في لغة القرآن الكريم.

ومن ذلك قول الله ﷻ:

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ (فاطر).

بتأمل حركة الكاف في كلمة (ممسك) في الآية نجد أن السكون في الثانية موافق لمعنى الإمساك؛ لما بها من إغلاق وعدم حركة، في حين أن الأولى مفتوحة وهي مناسبة لمعنى قول الله ﷻ: ﴿يَفْتَحِ ﴾ .

ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة في آيات أخرى نحو قول الله ﷻ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ (الفاتحة).

لو كانت الجملة من مقول القول لكان مقتضاها: الحمدَ بفتح الدال على تقدير: أقولُ الحمدَ لله، فلماذا عُدِلَ عن النصب إلى الرفع (الحمدُ) على تقدير: قولي: الحمدُ لله؟!

الجواب: عُدِلَ عن النصب إلى الرفع للدلالة على أن الحمد ثابت لله ﷻ أزلًا، وإنْ لم يحمده أحد؛ فقد حَمِدَ نفسه بنفسه قبل أن يَحْمَدَهُ الخلق، وعليه فالجملة خبرية لا إنشائية لفظًا ومعنًى. وهو أَوْلَى الأقوال في هذه الجملة.

- وينتظم في هذا السياق توالي الحركات على نحو متفرِّد:

وكما شرط العلماءُ في الكلمة أن تكون خفيفةً على السمع، سهلةً في المنطق، بعيدةً عن عيوبِ الثقلِ والتنافر، وأن تكون قليلةَ الحروف حتى لا يتعسر اللسانُ عند التلفُّظِ بها.

كذلك شرطوا أن تكون الكلمةُ خفيفةَ الحركات للأسبابِ نفسها، ومن أجل ذلك استُثقلت الضمةُ على الواو والكسرةُ على الياءِ، لأن الضَّمةَ من جنس الواو، والكسرةَ من جنس الياء ، فتكونُ عند ذلك كأنها حَرَكَتان ثقيلتان .

فإذا سكَن الوسَطُ كان أعدلَ ما يكونُ وأرقَّ، وإن توالَ ثلاثُ فَتَحاتٍ فهو أخفُّ من وجودِ الضَّم في وسَطه ، ولذلك فإن [فَرَساً] أخفُّ من [عَضُد] .

وقد توالت حركةُ الضم في بعض ألفاظِ القرآن الكريم، ولم يحدثْ في الكلمةِ ما يُخِلّ بفصاحتها، أو يُوهم ثقلَها على السمع، أو كرهيَّتَها عند النطق .

تأمل سورةَ القَمَر . وهي من السور المكية التي حَفَلت آياتُها بالفزَعِ والكربِ، والأخذِ والتدمير؛ حيث إنها عَرْضٌ سريعٌ لمصارِع قومِ نوحٍ، وعادٍ، وثمود، وقومِ لوطٍ، وفرعونَ وملئِه، وهي موضوعاتٌ تَزْخَر بها السورةُ في صور شتى.

وقد تتابع فيها حركةُ الضمةِ في كلمات الفواصل في

سبعَ عشرةَ آية، كقوله تعالى: ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ (القمر: ٥ – ٦)، ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ (القمر: ١٣)، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ ﴾ (القمر:).

تكرَّرَذلك في السورة في سبعَ عشرةَ فاصلة .

ولعل تتابعَ الضمةِ وما فيها من القوة والشدة ما يتناسبُ مع غَرَض السورة، إذ هي عَرْضٌ لمشاهدَ من صورِ الفزعِ العنيف، والرعبِ الشديد الذي يُصيبُ أجيال المكذبين، وَوَصْفِ مصارعِ القومِ الذين سلكوا مسلكَ كفارِ مكة .

وقد جاء الضمُّ المتتابعُ في فواصلِ هذه الآياتِ الكثيرةِ وفي سورةٍ واحدةٍ حَسَنًا رائقًا، لا ثقلَ فيه عند النطق، ولا نُبُوَّ في وقعه على السمع [٥٠]، ولا عجب في ذلك فهو من عند الله عالمِ الأسرارِ واللطائف، وتنزيلٌ من الرحمن الرحيم.

وسبحان من هذا كلامه!

وما يعقلها إلا العالمون.

وما يتذكر إلا أولو الألباب.

****

المسألة السابعة

عولمة الصوت وعالمية النغم القرآني الخالد في الواقع المعاصر

- **مفهوم العالمية:**

يُقصْدَ بالعالمية: سعة الانتشار عبر الزمان والمكان، والعالمية سمة مميزة للفنون الرفيعة، فقد أجمع النقاد ومؤرِّخو الفنِّ على أن الفن الرفيع ينبغي أن تتوفر فيه صفتان هما: العالمية والدَّوام، ويُرمز إليهما بالحرفين الأوَّلَيْن من هاتين الكلمتين: ***Universal*** أي عالمي، و ***Permanent*** أي دائم، فيُقال: إن الفن الرفيع (***P.U***)؛ حيث تشير صفة العالمية ***Universal*** إلى الانتشار عبر المكان، فالفن العظيم لا وطن له، وتشير صفة الدوام إلى بقاء الفن الرفيع على مدى العصور.

- **مفهوم العولمة:**

أمَّا العولمة "*Glabalism*" فتعني: تنميط الثقافات المتنوعة وقصرها على التشكُّل في قوالب يُقَال إنها عالمية، والحقيقة أنها القوالب والأنماط الثقافية الغربية والأمريكية خاصة؛ بحيث تمثل الثقافة الأمريكية المحور والتيار الرئيس الذي تدور من حوله ثقافات كل الشعوب وتحتذيه مثالاً أَعْلَى في العلم والإبداع وغير ذلك من أشكال الممارسة الإنسانية.

وهنا يكمن الفرق بين العالمية والعولمة، فالعالمية تُسْتَمَدُّ من القيم التي يحملها الإبداع، بما يهيِّئ له أن يتخطَّى حواجز الزمان والمكان، ويُصغي إليه البشر في العصور والبقاع كافة. بينما تُفْرَض العولمة قسرًا؛ خضوعًا للثقافة المهيمنة بما روَّجَتْ له من نظريات المركز والأطراف، المحور والهامش.

- **عولمة الصوت:**

سعى دعاة العولمة إلى تحويل الصوت إلى سلعة يتم تداولها عبر وسائط العولمة الاقتصادية والتكنولوجية كشرائط الكاسيت والفيديو والإذاعة والتليفزيون وبرامج الكمبيوتر وشبكاته؛ بحيث لم تعد فنون الصوت ـ كالموسيقى والغناء ـ فنونًا تؤثر في العاطفة الإنسانية المشتركة وتلمس الروح الإنسانية بما تحمله من قيم جمالية ووجدانية، بل مجرد سلعة تُقَدَّم لمن يدفع الثمن.

وراحت عمليات العولمة تنتج فنونًا موسيقية وغنائية ليس فيها شيءٌ من الجمال أو الإبداع، وإنما هي ضجيج صاخب يصدع الرءوس، وإيقاعات فجة تتمايل معها الأجساد حتى تسقط منهكة القُوَى سقيمة المشاعر، فكانت تلك الأساليب الموسيقية الغربية، والغناء المُخنَّث على طريقة مايكل جاكسون وغيره من نجوم هذا اللون من الغناء والموسيقى.

كما قامت عمليات عولمة الصوت باجتذاب بعض الموسيقيين والمغنين من بلاد العالم الثالث، وراحت تروِّج لهم بكل أشكال الدعاية، وتروِّج لموسيقاهم بزعم البحث عن الأصالة والعنصر الروحي في الموسيقي والغناء، على نحو ما فعلوا مع المُنْشِد الصوفي الباكستاني "نصرت فتح علي خان"، الذي اشتهر عالميًّا بـ"فن القوَّالي"، أي: الموسيقَى والإنشاد الصوفي، والمُغَنِّي والموسيقي السنغالي "يوسو ندور"، الذي لم يمتثل لشروط شركات الإنتاج الموسيقي التي كانت ترغب في تحويل أصالته الفنية إلى مجرد حِلْيةٍ شكليَّة تذوب في تيار الموسيقى الغربية؛ ولذلك أسقط اسمه من تلك الألبومات الموسيقية التي وصفها النقاد بأنها مُمْعِنة في الطابع الغربي أكثر من اللازم.

في هذا الاتجاه نحو عولمة الصوت ادَّعت شركات الإنتاج أنها تبحث عن الأصالة والتنوع الموسيقي، واخترعت مصطلح "الموسيقى العالمية" وأطلقته على ألوان الموسيقى التي

لا يعرفها الجمهور الغربي مثل: التانجو (من الأرجنتين وأورجواي)، والروك والبوب (من البرازيل)، والنورتينو (موسيقى الشمال من المكسيك)، إلى الموسيقى الشعبية الأندلسية ذات الأصول العربية المُسمَّاة "موسيقى لوس ديل ريو"، وهي جملة إسبانية تعني: أولئك الذين من النهر، إشارة إلى نهر جود الكوفير .مأخوذ من العربية: الوادي الكبير .، وقد اشتهر فنَّانو هذه الموسيقى الشعبية الأندلسية باسم "ملوك الماكارينا" نسبة إلى أشهر أغنياتهم المُسماة "ماكارينا" التي كانت مثارًا لجنون الشباب في الغرب وكثير من بلاد العالم الأخرى؛ نتيجة للدعاية الضخمة التي قام بها مُنْتِجو الكاسيت، بهدف جَنْي أرباح وفيرة[٥١].

إذن لم تعد الموسيقى . في إطار العولمة . تحتفي بالقيم الفنية والجمالية، وإنما هي تُسَوِّق كل ألوان فنون الصوت، وتخلط الغثَّ بالسمين، وتضع أسطوانات بيتهوفن وباخ وموزار إلى جانب أسطوانات مايكل جاكسون وموسيقى الراي الجزائرية... إلخ.

إن الهدف الواضح في عمليات عولمة الصوت أمران:

الأول: جَنْي الأرباح.

الآخر: تنميط الأشكال الموسيقية والغنائية في العالم كله وإخضاعها للقوالب الموسيقية الغربية؛ لإرضاء ذوق الجمهور الغربي، وإبقاء سيادة الأشكال الموسيقية الغربية دون غيرها من ألوان الموسيقى وفنون الصوت في البقاع الأخرى من العالم.

وإذا أردنا أن نفهم العلاقة بين الموسيقى العالمية (المزعومة) وبين العولمة، فلن يتأتَّى لنا ذلك إلا بالبحث عن الأهداف الاقتصادية والثقافية والاجتماعية الكامنة وراء ذلك الإنتاج الضخم لفنون الصوت المُعَوْلَمة.

فأمَّا من الناحية الاقتصادية: فنجد أن ٩٠% من إجمالي المبيعات من ألبومات الأغاني والموسيقى في العالم كله (خلال عام ١٩٩٤) تملكه ست مؤسسات تجارية دولية هي: فيليبس، وسوني، وماتسوشيتا، وثورن إي. إم. آي،

وبيرتلزمـان، وتـايم وورنـر؛ ولـذا تميَّـزت صـناعة الموسـيقى العالميـة بالهيمنـة الاقتصـادية لمؤسسـات تجاريـة مـن أمريكـا وأوربا وشرق آسيا، وهي مراكز صناعة العولمة.

وأمَّا من الناحية الثقافية: فإن الثقافة المهيمنة ـ أو التي يُراد لها الهيمنة ـ هي الثقافة الغربية، وخاصة الأمريكية وما يدور في فلك التبعيَّة لهذه الثقافة؛ ولذلك لا تؤخذ فنون الصوت غير الغربية مأخذ الجِدِّ بوصفها فنونًا رفيعة وأدواتٍ للتعبير عن أنماط ثقافية مختلفة، بل تُدَجَّن وتُتخذ كحِلًى شكلية تَزْدان بها الموسيقى الغربية؛ إرضاءً لنزعة الجمهور الغربي إلى الغرائبية والروحانية، واجتذابًا للجاليات الأجنبية في بلاد الغرب.

وأمَّا من الناحية الاجتماعية: فهناك حالة من النفاق الاجتماعي في الغرب، إذ يجتذب الألوان الموسيقية والغنائية من مختلف الثقافات، والغرب نفسه هو الذي يقمع تلك الشعوب ويمارس عليها صور الهيمنة والتجويع والحرمان

كافة، بل وصياغة مصائر تلك الشعوب.

ولعولمة الصوت كَهَنَتها من الكُتَّاب والصحفيين ومُقدِّمي البرامج الإذاعية والتليفزيونية وأصحاب شركات الإنتاج، ومُخطِّطي البرامج الثقافية، كل هذا يتآزر معًا لتكوين ثقافة صوتية عالمية، يتم إنتاجها في المركز "الغرب"، وتصديرها إلى الأطراف "سائر بلاد العالم".

وعلى الرغم من كل هذه السلبيات الناتجة عن عمليات العولمة لفنون الصوت، فإن لها بعض الإيجابيات المتمثِّلة في تعريف الغرب ببعض من أشكال الفنون الصوتية في الثقافات الأخرى المُهمَّشة، وأيضًا إلقاء بعض الضوء على تلك الثقافات وما لها من خصوصية في مجال الإبداع الصوتي.

ولكن ما يُضْعِف هذه الإيجابيات ويعظِّم من سلبيات عولمة الصوت، أنها تقوم على الأهداف الاقتصادية، وبالتالي استبعاد العناصر الجمالية والفنية، والأهداف الثقافية والاجتماعية التي كرَّست جهدها في تنميط الثقافات الأخرى،

والقضاء على الخصوصية الثقافية والهوية القومية والشخصية الاجتماعية للشعوب الأخرى لحساب حضارة الغرب وهيمنته بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية.

- **عالمية الصوت:**

الإبداع العظيم يفرض نفسه في كل زمان ومكان، تلك حقيقة العالمية عبر تاريخ الإنسان. وعلى الرغم من كل ممارسات الهيمنة التي قامت بها قُوَى العولمة، فإنها لم تستطع إخضاع الإبداع الصوتي للحضارات الأخرى، وسنضرب لذلك مثلًا بخلود الصوت القرآني وعظمة أدائه وعمق تأثيره في القلوب والمشاعر.

يقول رسول الله ﷺ في وصف قراءة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "مَنْ أَحَبَّ أن يقرأ القرآن غضًّا طريًّا كما أُنزل عليَّ فليقرأه على قراءة ابن أُمِّ عبد" [٥٢].

ولا تزال هاتان الصفتان: الغضاضة والطراوة، التي تعني عذوبة أنغامه، وأخذها بمجامع القلوب، ودوام هذه العذوبة

وذلك التأثير.. لا تزال هذه الصفة الخالدة للأداء القرآني العظيم باقية وستظل باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فها نحن أولاء نستمع إلى كلمات القرآن ونغماته فنهتز وتنتفض قلوبنا من الأعماق، ونسبح في فضاء روحاني نوارني ونحن نصغي لتلاوة المشايخ: محمد رفعت أو محمود خليل الحصري أو محمد صديق المنشاوي أو مصطفى إسماعيل... وغيرهم ممن وهبهم الله عذوبة الصوت، وكان لهم تمكُّن من فن التجويد والأداء القرآني.

وقد ظهر فيما تقدم من مسائل تفرُّد الخصائص الصوتية للقرآن الكريم.

وهذا قليل من كثير عن القيم الصوتية والإبداع الصوتي للقرآن الكريم وطرائق أدائه، التي تعبِّر عن التميُّز والخصوصية والإعجاز الصوتي للقرآن الكريم، وخلود الصوت القرآني في آفاق الزمان والمكان.

ولعلَّ ما قدَّمناه مقنعًا للفارق الهائل بين عولمة الصوت المفروضة بقُوًى خارجية لا تحكمها قيم جمالية وإبداعية، وبين عالمية الصوت المستمدة ممَّا يحمله من قيم جماليَّة ووجدانية وإنسانية فريدة، وما يتميَّز به من قدرة على التأثير العميق في القلوب والمشاعر دون إغفالٍ لخطاب العقل وإثارة الفكر والتأمُّل؛ الأمر الذي مكَّن للقرآن الكريم أن ينتشر بقوته الذاتية عبر الزمان والمكان.

وسيظل الصوت القرآنيُّ فريدًا مُشْبِعًا للأسماع والقلوب، إلى أن تقوم الساعة وتخشع الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسًا.

وهكذا كلما ازددنا تدبرًا ازددنا إجلالًا لهذا الإعجاز الصوتي الفريد في القرآن الكريم.

وسبحان من هذا كلامه!

وما يعقلها إلا العالمون.

ومـا يتذكـر إلا أولو الألبـاب.

****

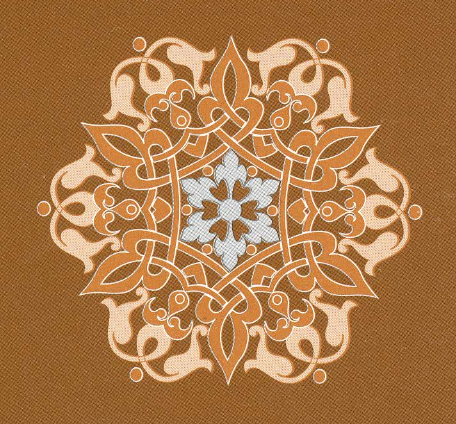
المراجع العربية:

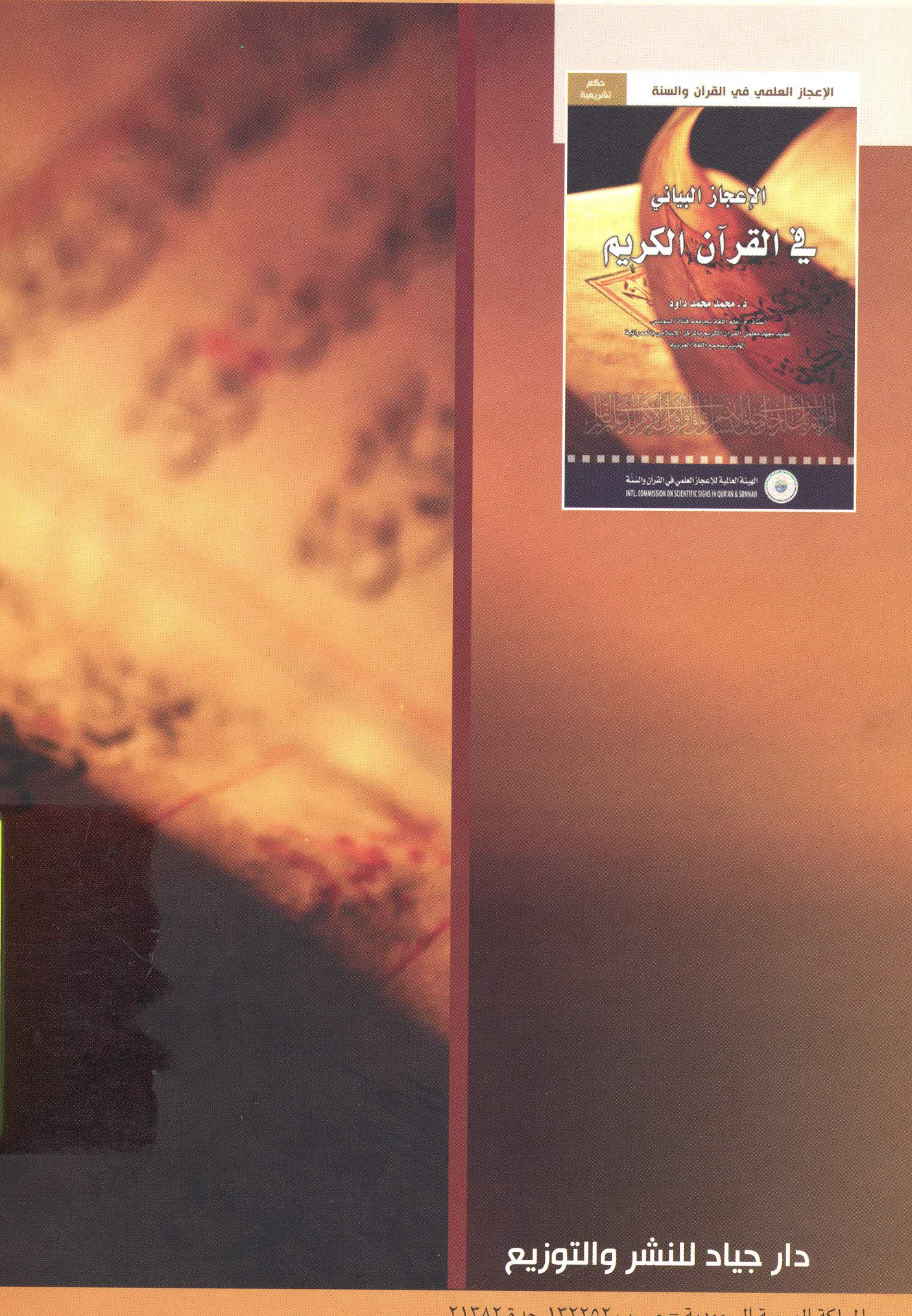
- القرآن الكريم.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية / مصطفى صادق الرافعي ط٩ . بيروت: دار الكتاب العربي،١٩٧٣م
- البيان في روائع القرآن : دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني/ تمام حسان القاهرة:عالم الكتب ١٩٩٣م.
- تحفة الإخوان في بيان تجويد القرآن / حسن إبراهيم الشاعر.
- التصوير الفني في القرآن / سيد قطب . ط١ القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٨ م .
- التعبير الفني في القرآن / أمين بكري شيخط٤ . القاهرة : دار الشروق .
- الخصائص / ابن جنى، تحقيق محمد على النجار. ط٣، مزيدة ومنقحة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.
- دراسة إحصائية لجذور تاج العروس باستخدام الكمبيوتر / علي حلمي موسى ، عبد الصبور شاهين الكويت : مطبوعات جامعة الكويت ، ١٩٧٣ م .
- دلالة الألفاظ / إبراهيم أنيس . القاهرة : مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٩٦٣ م .
- الدلالة والكلام (دراسة تأصيلية لألفاظ الكلام في العربية المعاصرة في إطار المناهج الحديثة)/ محمد محمد داود . القاهرة : دار غريب ، ٢٠٠٢ م .
- دلائل الإعجاز / الجرجاني ؛ تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي . القاهرة : مكتبة القاهرة، ١٩٨٠م
- الرسالة الشافية ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن / الجرجاني القاهرة ، ١٩٦٨م .
- سنن أبي داود / أبو داود . ط١ . القاهرة : مكتبة أولاد الشيخ للتراث، ٢٠٠٢ م .
- سنن الترمذي / الترمذي . القاهرة : جمعية المكنز الاسلامي ، ١٤٢١ هـ.
- سوسيولوجيا الفن / ديفيد إنجليز ، جون هجسون ؛ ترجمة ليلى الموسوي؛ مراجعة محمد الجوهري الكويت : المجلس الوطني للثقافة والعلوم ؛ ٢٠٠٧م (عالم المعرفة ؛ ٣٤١) .
- الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها / ابن فارس ؛ تحقيق مصطفى الشربيني القاهرة : الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٣ م .
- فتح القدير / الشوكاني دمشق : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، .
- في اللهجات العربية / إبراهيم أنيس .ط٤ القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط٤، ١٩٧٣م.

- القاموس المحيط / الفيروز آبادي ط١ بيروت : دار العلم للملايين،١٩٨٦ م .
- كتاب الموسيقى الكبير / الفارابي . القاهرة : دار الكتاب للطباعة والنشر .
- كمال اللغة القرآنية / محمد محمد داود. ط١ القاهرة: دار المنار، ٢٠٠٧م.
- لسان العرب / ابن منظور ط٣- بيروت : دار صادر ، ١٩٩٤ م .
- مباحث في علوم القرآن / صبحي الصالح . القاهرة : مكتبة وهبة ، ٢٠٠٤م .
- المعجم العربي الحديث / لاروس ، ١٩٧٣ م .
- معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى والصيغ والأساليب المتشابهة / محمد محمد داود . القاهرة : دار غريب ، ٢٠٠٨ م .
- المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة / محمد العبد. ط١ . القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠٠٦م.
- النبأ العظيم : نظرات جديدة في القرآن / محمد عبد الله دراز . ط٦ الكويت : دار القلم، ١٩٨٤م.
- نظام الغريب في اللغة / عيسى الربعي.
- نيوزويك ، مارس ٢٠٠٥ م . (عدد٢٢) .

المراجع الأجنبية:

- Clive Modern Arabic, Holes, Structure, Functions and
- Varieties, London, Longman, 1995.
- Structure du Langage poetique, JeanCohen, Flammation, Paris, 1966.





المملكة العربية السعودية - ص.ب ١٣٢٢٥٢ جدة ٢١٣٨٢
هاتف: ٠٠٩٦٦٢٦٧١٦٩٩٨ / فاكس: ٠٠٩٦٦٢٦٧٥٢٦٥٠